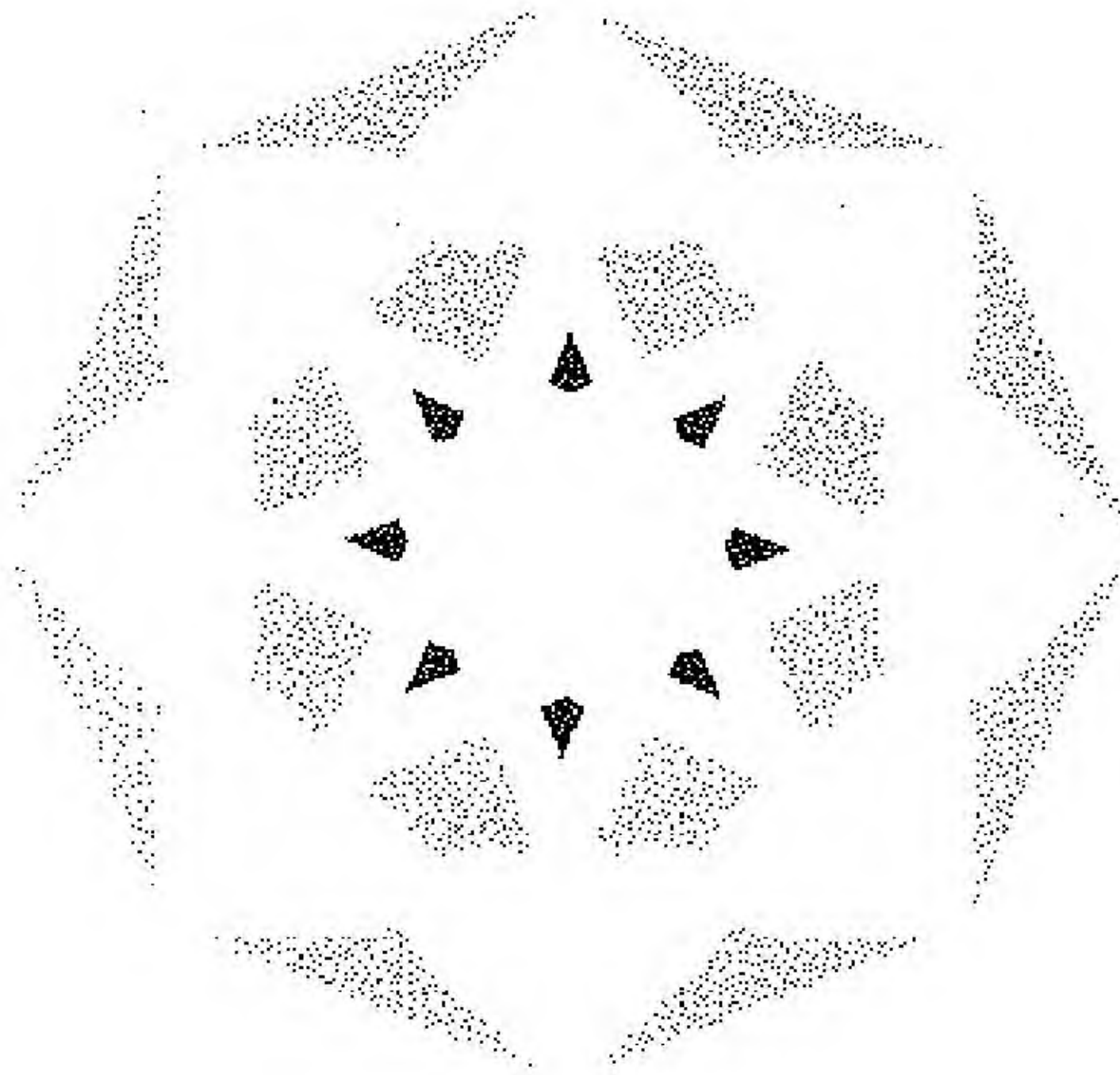


جمالنا

التعداد

في مجتمع إسلامي



دار الفكر الإسلامي



جمال البنا

# التعددية فكر مجتمع إسلامي

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ ش الجيش - ١١٢٧١ القاهرة - هاتف وفاكس: ٥٩٣٦٤٩٤

e.mail: gamal\_albanna@infinity.com.eg

<http://www.islamiccall.org>





# جمال البنا

رئيس الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل  
مدير مؤسسة فوزية وجمال البنا  
للتقافة والإعلام الإسلامي  
رائد دعوة الأحياء الإسلامي

١٩٥ ش الجيش ١١٢٧١ - القاهرة - هاتف وفاكس ٥٩٢٦٤٩٤  
e.mail: gamal\_albanna@infinity.com.eg  
http://www.islamiecall.org

## مُقَدِّمَةٌ



### والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تصور البعض أنه لما كان الإسلام دين التوحيد. فإن التوحيد ينسحب على كل شيء فيه بما في ذلك المجتمع ومظاهره وتجلياته من نظم وأوضاع وقنون وآداب وعادات وسلوك ولزياء الخ... فلا يوجد إلا نمط واحد في كل مجال من هذه المجالات وهو ما يضع للمجتمع الإسلامي في قالب واحد لا يتغير ولا يتطور ولا يتعدد .

وقد يُذكر في هذا الصدد "الوسطية" التي ينادى بها بعض المفكرين باعتبارها الموقف المختار للمجتمع الإسلامي تجاه التيارات المتعارضة يميناً ويساراً شرقاً وغرباً، وهو تكييف سليم، وقد نص عليه القرآن. فلم يقل القرآن "أمة التوحيد" ولكنه قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً). ولكن هذا نفسه لا ينفي التعددية، بل هو يثبتها لأن الوسطية تفترض وجود الإفراط والتفريط. التحلل والتزمت. الإسراف والتقتير الخ... ولا يمكن تصور وسطية حيوية بدون تعددية، وإلا تصبح هي الوسطية الرياضية التي تغطي التوسط بين نقطتين لو أنها تتجمد في قالب واحد وتأخذ طابعاً ثبوته، وهو ما يتنافى مع حيوية ودينامية الإسلام .



ويرى هذا البحث أن التوحيد في الإسلام إنما أريد به الله تعالى وحده، وأن سحب هذه الصفة (الواحدية) على غيره أمر لا يجوز، بل إنه قد يصبح شكلاً من أشكال الشرك. لأن الله تعالى قد تفرد بهذه الصفة، واضفائها على غيره شرك به. فتوحيد الله يستتبع تلقائياً التعددية فيما عداه .

ونحن في استخدامنا لهذه الطريقة إنما نتبع الأسلوب الفريد الذي صاغه الإسلام في إثبات الوجوب بنفي ما عداه. والشاهد الأعظم على هذا هو "لا إله إلا الله" فهذا يثبت الإسلام وجود الله في الوقت نفسه الذي ينفي ما عداه ولو أنه قال "الله موجود" هذه الصيغة وإن أثبتت وجود الله، ولكنها لا تنفي ضرورة ما عداه - أي أن يكون له أنداداً - في حين أن "لا إله إلا الله" تثبت الله وتنفي ما عداه .

ومن هنا فإن لقب "دولة التوحيد" الذي يرسله البعض في اعتراز وفخر ليس وصفاً سليماً من ناحيته، فالإسلام ليس دولة، وإنما هو<sup>(١)</sup> أمة، وهذه الأمة تأخذ بالتعددية لا بالواحدية كما لا يمكن أن يقال "دولة الفضيلة" لأن نصيب الدولة في إقامة الفضيلة أو تعزيزها تافه، بل قد يؤدي تدخل الدولة في هذا المجال إلى المساس به. والتعبير الصحيح هو "أمة العدل" لأن الإسلام بالنسبة للتجمع البشري "أمة" ولأن طابعه الرئيسي في القيم الاجتماعية هو العدل .

وقد وضع الإسلام للمجتمع البشري كيفية أوردتها القرآن الكريم تقوم على تفاعل ركائز أو قوى. فهناك هداية الأنبياء التي تعين الإنسان على سلوك الطريق المستقيم، وهناك غواية الشياطين التي تلقى بسسه في لجج الشهوات والشرور، وهناك الإنسان نفسه الذي يملك بما غرس الله فيه من عقل وفطرة أن يتجاوب مع هداية الأنبياء، كما يمكن - في حالات أخرى -

---

(١) ستكون هذه الإشارة موضوع الكتاب التالي من دفاتر الإحياء الإسلاميين وأمة وليس دين ودولة .



أن يستسلم لغواية الشياطين بالتفصيل الذى سيرد فى هذا الكتاب، فالمجتمع البشرى له طبيعة تعددية .

والمجتمع الإسلامى لا يشذ نوعياً عن المجتمع البشرى، لأن الإنسان مسلماً أو غير مسلم، له طبيعة واحدة، ولكن المجتمع الإسلامى يختلف فى الدرجة وليس فى الطبيعة، وفى بعض التجليات، وليس فى كلها، فلا جدال أن فى الإسلام قوة خاصة تكيف سلوك المؤمنين به، وفيه من الضمانات ما تحول دون الاستسلام الكامل للشهوات والشُرور أو الانسياق وراء خطأ الشيطان. أو انتهاج للسرف والشطط، ولكن هذه الضمانات قد لا تحول دون ممارسات أدنى من ذلك لأن للطبيعة البشرية - بعد كل شيء - حكمها وضعفها، ولأن الله تعالى عندما جيل النفس البشرية "ألهما فجورها وتقواها"

وأى محاولة لفرض قالب واحد مصمت على المجتمع بدعوى التوحيد الإسلامى، أو حتى الوسطية الإسلامية، وأى تجاهل للعوامل العديدة التى تؤثر فى هذا المجتمع لو تقف فى وجه التعددية تكون محاولة محكوم عليها بالفشل بعد أن تستهلك وقتاً وجهداً كان البناء الرشيد والقصد السديد أولى بهما وهذه هى قيمة المعرفة، إذ هى تميز ما بين الخطأ والصواب كما تهدينا إلى السبل الموصلة والوسائل الناجحة. فإذا لم تكن لدينا المعرفة بهذا كله نخبطنا وتوزعتنا الطرق وغلبت المماحكة أو غربتنا الأماني وخدعنا السراب فتمضى طويلاً دون أن نصل إلى شيء .

ولكى لا يحدث هذا وضعنا هذا الدفتر من دفاتر الإحياء، وأن يكون الثالث، بعد الحرية وتنوير القرآن هو ما يعبر عن الأهمية الكبيرة للموضوع فى الفهم السليم للإسلام ...

## جمال البناء

أبريل ٢٠٠١

المحرم ١٤٢٢

القاهرة فى :



## **الفصل الأول**

### **توحيد الله يستتبع التعددية**

### **في كل ما عداه**

---

لم يصل دين من الأديان بتوحيد الله إلى الحد الذي وصل إليه الإسلام، وقد أهدرت اليهودية المعنى المطلق للتوحيد عندما جعلت الإلهها الواحد إلها خاصا ببني إسرائيل، ومن ثم فلا معنى للحديث عن التوحيد في اليهودية. أما المسيحية فقد ألقت ظلالا كثيفة على الإلهها الواحد بفكرة الأقانيم الثلاثة، فإذا أريد للتوحيد بأجل معانيه فليس إلا الإسلام .

فإن الله في الإسلام هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وقد أسهب القرآن الكريم في عرض صفاته تعالى وكلها تصب في هذا المعنى فهو الذي لا تتركه الأبصار وليس كمثله شيء. ونهى القرآن عن أن يضرب المؤمنون له الأمثال لو أن يجعلوا له أندادا لأنه لا مثيل له .

وقد أمل الفلاسفة القدماء أن يصلوا إلى الجوهر الفرد الذي لا يتجزأ، وظن بعضهم أنه يمكن للوصول إليه، وأنه سر الكون، ولكن هيهات فقد أثبت العلم الحديث أن ليس في الموجودات والقوى والعناصر جوهر فرد لو عنصر لا يتجزأ فكل شيء يتجزأ إلى ما لا نهاية، وكل جزء يرتبط



وينفصل عن بقية الأجزاء والجميع يدورون بانتظام أو بالتعبير المعجز «كل في فلك يسبحون» .

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الله الواحد الأحد فإنه يتحدث إلى الإدراك الإنساني رغم ما يبدو من بساطته وبداية فكرة للواحدية فما أن يفكر الإنسان حتى يعجز عن تصور ما لأنه يعجز عن تصور كيان غير مركب من أجزاء وهو يتصور أنه إذا انتفت الأجزاء انتفى الكيان، ولا يوجد شيء، وليس إلا العدم ومن ثم فإما أن يكون مركبا من أجزاء وإما أن لا يكون، خاصة وأن القرآن يعزز ويعمق فكرة التوحيد وينزهها عن غيرها من كل شوائب التجسيد والتوثين، وأضفى عليها في الوقت نفسه الحياة والقوة والإدراك والحكمة والسمع والبصر و ٩٩ اسما من الأسماء الحسنى بجائز الصفة الهامة التجريد ..

وعندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه "الباقي" أو "الذي لا يموت" فإنه بالتبعية ينفي أن يكون شيء أو مخلوق هذه الصفة - فكل ما نراه يتعرض للتغيير، والموت واللفناء - «كل شيء هالك إلا وجهه»، والموت هو مصير الجميع في هذه الحياة الدنيا «كل نفس ذائقة الموت». «أينما تكونوا يدرككم الموت» .

ولو قلنا إن هناك خالقا غير الله وباقي غير الله لكان هذا شركا بالله وخروجا عن "التوحيد" الإسلامي لأنه يشرك أحدا فيما خص للتوحيد الإسلامي الله تعالى - وحده - به .

وكذلك عندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه الواحد الأحد. فمعنى هذا أن ليس في الكون أو المجتمع أطيء ولكن تعددية يمكن أن تصل إلى مئات وألف الصور .



وقد ضل الفلاسفة وبعض الذين تحدثوا عن "وحدة الوجود"، ووهم الشعراء الذين تصوروا الله تعالى في الشمس البازغة والزهرة اليبانة والجمال الإنساني فهذه كلها من آيات الله في الخلق في أحسن تقويم، ولكنها ليست صفاته وأبعد منها أن تمس ذاته .

كما ضل كل من تصور أنه يمكن بحكم إيمانه وتفانيه في حب الله تعالى أن يصل إلى درجة من القرب بالله توجد نوعا من التوحيد فهيئات أنا للإنسان أن يصل إلى هذا ولم يصل الرسول إلا إلى "قاب قوسين" من صدره المنتهى لأن ما بعد ذلك يخالف طبيعة التوحيد ويمكن أن يصل إلى حد الشرك .

وعندما يقول الله تعالى في عشرات، أو مئات الآيات أنه الخالق، فإنه ينفي بالتبعية أي خلق لغير الله تعالى ويصبح من ينسب قدرة الخلق إلى غير الله مشركا، وهو الذنب الوحيد الذي أعلن الله تعالى أنه لا يغفره إلا أن يتوب .

وهو لا يكتفى بهذا المعنى الضمني، بل يعلنه مرارا وتكرارا فمن غير الله يخلق ؟ إن كل شيء عدا الله تعالى مخلوق ..

ووصل حرص الإسلام على إفراد الله تعالى وحده الخالق. أن حرم الإسلام في المرحلة الأولى لظهوره التصوير ونحت التماثيل لأنها نوع من "الخلق" يمكن أن يؤدي إلى الوثنية، خاصة والعرب حديثو عهد بها. فجاء في الحديث "من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة" .

ولا يجوز لأحد أن يقول عن سيده "ربى" ولكن سيدي كما لا يجوز للمريد أن يقول "عبيد" ولكن فتاى ..

ولا يجوز لأحد أن يتألى على الله فيقول مثلا "والله لا يغفر الله له" فمن ذا يتألى على الله، ومن ذا يعلم ماذا سيفعل الله .



ورفض القرآن فكرة أن يعبد العرب أوثاننا «لنقربونا إلى الله زلفى»  
وندد بالذين اتخذوا أحيارهم أربابا دون الله، وفسر الحديث ذلك بأن هؤلاء  
الأحيار كانوا يحللون ويحرمون، وهذه المهمة هي ما يتفرد بها الله تعالى  
فقيام الأحيار بها نوع من الشرك .

بل حتى الشفاعة، التي ليست إلا رجاء وسؤالا، لا يجوز إلا لمن  
أذن الله وبضوابط موضوعة- لأنه إذا عدت هذه الضوابط فيمكن أن تتحول  
الشفاعة إلى الشرك أو أن تقارب الشرك .

من هذا نفهم إن ما تطرق إلى بعض الأذهان من وجود  
مجتمع إسلامي أحادي الطبيعة لأنه يدين بالتوحيد إنما هو ليس  
وهم بل مفارقة لأن الإيمان بتوحيد الله يستتبع التعددية فيما سواه،  
وأن هذه التعددية تصبح أمرا لازما بحكم الواحدية الإلهية، لأنها تعد  
الضرورة المنطقية أمام الواحدية الإلهية حتى لا تتطرق إشارة من  
شرك لمعنى التوحيد الإلهي- وفي الوقت نفسه فإن الله تعالى هو  
الذي أراد هذه التعددية ووضع لها آلياتها حتى لا يتطرق الخل إلى  
هذه التعددية وبهذا نجد التوحيد الخالص بالنسبة لله تعالى والتعددية  
المنضبطة بالنسبة للمجتمع .



## الفصل الثاني

### إشارات القرآن إلى التعددية

---

كل من يتصفح القرآن الكريم، ويتأمل سوره سورة سورة، يجد أنه بمقدار ما حرص على إبراز وتأييد التوحيد بالنسبة لله تعالى بقدر ما أبرز التعدديات فيما عداه .

بل إن القرآن نفسه كان من أكبر مصادر التعددية، ذلك لأن أسلوبه المجازي وصياغته المتميزة للكلمة تجعل لها معاني متعددة، فما من كلمة قرآنية أو آية إلا ويمكن تقديم عدد من التفسيرات لها لأن القرآن أنزل لكل المسلمين في كل العصور وكان سر الأعجاز القرآني أن الكلمة القرآنية تتسع لتأويل يتفق مع مفاهيم العصر الحديث، كما تقابلتها مفاهيم العصر القديم. بل إن الأحكام (العقوبات) القرآنية نفسها التي يفترض فيها التحديد - صيغت بصورة عامة مما استوجب أن تقوم السنة بدور كبير في "البيان" القرآني، ونشأت عن هذا كله مجلدات التفسير والحديث وما بنى عليهما من فقه وسمح جو الحرية الأول بظهور المئات والألوف من التعدديات في العقيدة والشرعية قبل أن ينطلق باب الاجتهاد .



## فالقرآن نفسه يعد من أكبر مصادر التعددية، أو قل إنه الأصل فسي التعددية الإسلامية .

ويوضح لنا القرآن صوراً من التعددية أبعد وأكثر مما يتصوره أنصارها.. فهذا الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه ليس إلا وحدة صغيرة من ملايين أو حتى بلايين الكواكب تفصل ما بين الأرض وبينها مئات السنوات الضوئية، ويفوق بعضها الأرض حجماً مرات عديدة، ومره أخرى فإن كل هذه الكواكب والمجرات التي يضمها الكون ليست إلا عالم "الشهادة"، وهناك عالم آخر يطلق عليه عالم الغيب.. يبدأ حيث ينتهي عالم الشهادة، وفي عالم الغيب هذا جنة ونار، وعذاب وثواب ..

وفي عالمنا الصغير - كوكب الأرض - تتعدد الأنهار والبحار ويختلف الليل والنهار وترتفع الجبال والهضاب وتنخفض السهول والوديان.. وهناك أنواع بمئات الألوف من الحشرات والطيور والنبات أما الإنسان نفسه فرغم أنه واحد يسير على قدمين فإنه متعدد الجنسيات والألوان والأنسنة واللغات والأديان والمعتقدات فالكون الأرضي ومجتمعه الإنساني أبعد ما يكون عن الواحدية .

واستبعد القرآن أن يكون الناس أمة واحدة ينظمهم اتفاق ورأى إنهم مختلفون، وسيظلون مختلفين تميز بعضهم عن بعض ألوان البشرة ولغة اللسان والعقائد والانتماءات.. وأنهم في الأمة الواحدة سلف.. وخلف.. يختلف بعضهم عن بعض وأعتبر من آيات الله «اختلاف ألسنتكم وألوانكم»، وما أكثر مادة "اختلف" في القرآن "اختلف" - اختلفتم - اختلفوا - تختلفون - خلاف - اختلاف - مختلف" فهذه كلها تكل على مساحة واسعة للاختلاف وبالتالي التعددية ...

وإذا كان القرآن الكريم قد وصف أمة المسلمين إنها "واحدة" فهذا يعني أنها واحدة في عقيدتها ولكنه لا ينفي عناصر التميز والاختلاف والتنوع بين شعوب وفصائل هذه الأمة داخل الإطار الفسيح للعقيدة الواحدة



على إن القرآن الكريم لا يكتفى بهذه الإشارات العامة إلى التعددية ولكنه يقرنها بعدد من القواعد التي ترسي التعددية، ثم يصل إلى الغاية عندما يقرر التعددية الدينية وتعايش الأديان جنباً إلى جنب .

ومن القواعد التي ترسي التعددية في القرآن الكريم :

١. النص على أن الله تعالى خلق كل شيء من زوجين، وبهذا نفى  
الواحدية من المجتمع وأثبت التعددية ابتداءً من زوجين أو "أزواجاً"  
بصيغة المجتمع .

□ «سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض» . {٣٦ يس}

□ «والله خلقكم من تراب، ثم من نطفه ثم جعلكم أزواجاً» . {١١ فاطر}

□ «أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج بهيج» .

{٢٦ الشعراء}

□ «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» . {٤٩ الذاريات}

فهناك تعددية حتمية لأنها " الزوجية " ..

٢. تقرير مبدأ الدرجات بما يتضمنه ذلك من تفاوت، وبالتالي تعددية وقد  
استخدم القرآن كلمة "درجة" ليميز بها بين فئات من المؤمنين فقال ..

□ «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون

في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم

على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين

على القاعدين أجراً عظيماً» . {٩٥ النساء}



□ «ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون» .

{الأنعام ١٢٢}

□ «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أناكم» .  
{الأنعام ١٦٥}

□ «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون» .  
{التوبة ٢٠}

□ «ورفعنا بعضكم على بعض درجات» .  
{الزخرف ٣٢}

وحتى بالنسبة للأتبياء ..

□ «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات» .  
{البقرة ٢٥٣}

٣. تقرير مبدأ استباق الخيرات، وجاء تصوير القرآن لهذا المبدأ متضمنا حرية انطلاق الأفراد من منطلقاتهم الخاصة ..

□ «ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات ..» .  
{البقرة ١٤٨}

□ «... لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما أناكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» .  
{المائدة ٤٨}

□ «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه» .  
{التوبة ١٠٠}

□ «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير» .

{٢٢ فاطر}

□ سابقوا إلى مغفرة من ربكم . {٢١ الحديد}

٤. تقرير مبدأ "التدافع" وهو أقوى من مبدأ استباق الخيرات، وقد جاء في سورتي البقرة والحج .

□ «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين» . {٢٥١ البقرة}

□ «إن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا» . {٣٩-٤٠ الحج}

وهذا المبدأ يصور المجتمع وفعالياته، والصراع ما بين الحق ودعائه والباطل وأشياعه. كما يشير إلى بعض تجليات التعددية في الصوامع والمساجد والصلوات والبيع ...

٥. شمول العطاء الإلهي ..

تحدث القرآن الكريم عن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، أو الذين يستسلمون للمغريات، وتقبل هذا كأمْر واقع بحكم الضعف البشري الذي يستولى على بعض الناس. وأوضح أن عطاء الله ليس محظورا عليهم، وأن حسابهم لا يكون في هذه الدنيا، وإنما في الآخرة ..



□ ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا لـه جهنم يصلها مذبذوبا مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ . {الإسراء ١٩ - ٢٠}

□ ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتة منها، وما له في الآخرة من نصيب ﴾ . {الشورى ٢٠}

٦. تقرير مبدأ حرية الاعتقاد - ولعل تقرير القرآن لهذا المبدأ - أعظم دليل على تقرير التعددية في مبدأ هو صلب الأيمان جميعاً : الاعتقاد، وجاء تقرير القرآن له صريحاً لا يقبل لبساً، وفي العديد من الآيات التي يضيق هذا الموجز عن استيعابها مثل :

□ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ . {البقرة ٢٥٦}

□ ﴿... فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ . {يونس ١٠٨}

□ ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . {الإسراء ١٥}

□ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ {الكهف ٢٩}

وأوضح القرآن أن الدعوة إلى الإسلام لا تستتبع قسراً أو إغراء.. أو حتى ما لا بد وأن يساور نفس الداعية من أمل في الهداية وضيق بالرفض.. لأن الهداية من الله ودور الرسول هو البلاغ وليس له أن يأمى لرفض الراضين .

□ ﴿ ليس عليك هدام.. ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . {٢٧٢ البقرة}



□ «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون». {١٠٠-١٠١ يونس}

□ «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء». {٥٩ الفصل}

□ «فلعلك باخع نفسك على أثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا».

{٦ الكهف}

□ «أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى». {٥-٧ هود}

٧. تقرير القرآن أن الأصل في الأشياء الحل، وفي الأعمال لإبلاحه، وهي وأن كانت صياغة فقهية إلا أنها مستقاة من الآية ...

□ «كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه».

{٩٣ آل عمران}

□ «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا». {١٣ الجاثية}

كما أن ذلك هو مفهوم جعل التحريم والتحليل وفقا على الله تعالى وحده فيما ينص عليه في القرآن الكريم جليا وصريحا، ومثل هذه التحريمات معدودة ولا تمس الأصل الذي هو الحل، وما يعنيه من تعددية.

\*\*\*

ويثبت تقرير القرآن لهذه القواعد، أن القرآن الكريم يتفهم المجتمع البشري تفهما صحيحا وعميقا، ويحترم طبيعته، وأنه لم ير هذه الطبيعة جسما صلبا يستعصى على التطوير، كما أنه ليس جسما طريسا تسير فيه سكين الإصلاح كما تسير في قالب زبد... وليس هو أيضا عجينة رخوة



هلامية، ليس لها قوام ويمكن تشكيلها حسب الإرادة أو الطلب. وإنما هو كيان معقد مركب متعدد يتفاعل بطريقته الخاصة، وله الطبيعة العضوية للجسم الإنساني الذى يكتسب وجوده وحياته من الأعضاء والدم والأنسجة والأعصاب والعظام، كل منها يؤدي وظيفة محددة، وله الهيئة التى تمكنه من هذا وفى الوقت نفسه فإن عمل كل عضو من هذه الأعضاء يتلاقى ويتجاوب مع عمل بقية الأعضاء، وكلها تصب فى مجرى واحد وتستهدف غاية واحدة هى صحة الجسم الإنسانى وقيامه بمهامه نتيجة للتخصص الدقيق والتجاوب التلقائى بين كل هذه التخصصات، ويتم هذا بتعومة وسرعة تفوق فى بعض الحالات لمح البصر .

ويصدق هذا التصور على جسم كل فرد من البلائيين الذين يمثلون مجموع الجنس البشرى وفى الوقت نفسه فما من فرد من هذه البلائيين يشبه الآخر شبيها تاما فى كل شىء، وقد نجد عددا من الأخوة الأشقاء لأب وأم، وكل واحد منهم يختلف عن الآخر.. فبعضهم يرث صفات عن أمه، والبعض الآخر عن أبيه والبعض الثالث عن صفات مضمورة فى الأعمام والأخوال والأجداد الخ... وما من واحد منهم له بصمة يد تشبه بصمة أخيه. فضلا عن الآثار الاجتماعية المكتسبة والمختلفة لكل واحد كحظته فى الزواج والعمل، والموقع الذى يعيش فيه والتعليم الذى ناله .

هذه هى صورة المجتمع البشرى، والقرآن الكريم الذى تنزل من لدن خالق هذا المجتمع. يعامل المجتمع تبعا لهذه الطبيعة .

وكان يجب أن تؤدي طريقة تعامله مع المجتمع البشرى وإشاراته المتكررة التى تصب فى بحيرة التعددية لجعل المجتمع الإسلامى مجتمعا تعدديا بمعنى الكلمة تزدهر فيه الآراء.. وتتلاقح الأفكار ويبدى كل واحد بدلوه، ويرفع كل واحد صوته، ولكن هذا لم يتحقق إلا فى بعض جوانب الحياة، ولفترة محدودة مما جعل الإنسان يتساءل كيف حدث هذا، ولماذا ...



لقد كانت الفترة الذهبية القصيرة في تاريخ الإسلام هي الفترة النبوية والخلافة الراشدة، وقد حدثت في مجتمع ساذج بسيط هو المجتمع مسا بين مكة والمدينة فلم يتطلب تعددية كبيرة، ومع هذا فإن صحيفة المواقعة التي وضعها الرسول غداة قدومه المدينة، واعترفت باليهود جنباً إلى جنب الأنصار والمهاجرين واعتبرتهم "أمة واحدة" نموذج فريد في تقبل التعددية على قدم المساواة وداخل إطار فسيح يضم مختلف الأعراق والديانات .

كما أن موقف الرسول من "المنافقين" الذين صرح القرآن بكفرهم، وعدم اتخاذ إجراء نحوهم، بل صلاة الرسول على جثة كبيرهم عبد الله بن أبي هي صورة نادرة من السماح بوجود الآخر.. وقبل ما يعلنه رغم أنه يضم عكس ذلك الأمر الذي يضع مبدءاً من أخطر المبادئ وأهمها هو أن المحاسبة تكون على الظاهر، أما باطن الإنسان، وما يقر في أعماقه وبين جنبيه فيجب أن لا يكون موضوعاً للبحث أو محاسبة، كما يجب ملاحظة أن إشارات القرآن الخاصة بحرية الاعتقاد كانت في أصل سماحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى وإقراره كل ذي دين على دينه على نقض سياسة الدول الأوروبية التي كانت تفرض على اليهود والمسلمين نبذ دياناتهم والإيمان بالمسيحية حتى مشارف العصر الحديث .

ولو استمر التقدم الحضاري للمجتمع الإسلامي، ولم يبتلى بما أوقفه، لكان من المحتمل أن تصل التعددية في هذا المجتمع إلى مستوى قريب مما وصلت إليه التعددية في المجتمع الأوربي لأن طبيعة التعددية تملئ عليها ظهور التجليات العديدة للنفس البشرية حسنة أو سيئة، وصور الإغواء وإشباع الشهوات بمختلف الطرق، وسنرى التكيف "الشراعي" لمثل هذا الوجود في مجتمع إسلامي طبقاً لما يقرره القرآن، ولازدهرت الفنون والآداب ومشاركة المرأة في حياة المجتمع، ولما فقد المجتمع جمالياته التي جعلته يشبه صحراء غبراء بلقع.. إن هذا التطور لم يحدث، فقد قضت عليها النظم الحاكمة الاستبدادية والتقليد الفقهي المغلق .



ويصور تطور الفقه الإسلامى هذه المأساة فى فترة الازدهار طوال القرون الثلاثة الأولى تعددت الاجتهادات تعدداً وصل إلى حد البلبلة، وتعددت، وتناقضت الأحكام فى المدينة الواحدة ويقدر ما كان هذا يدل على درجة عالية من الحرية والخصوبة فى الفكر، بقدر ما كان يتطلب نوعاً من التنظيم، ولكن هذا تأبى على المجتمع وقتئذ. فالتجأ الفقهاء إلى إغلاق باب الاجتهاد.. وكانت تلك بداية النفق المظلم الذى سار فيه الفكر الإسلامى قرابة عشرة قرون فقد تجمد الفقه، وحبس فى قميص المنطق الصورى الأرسطى، وتجمد معه الفكر الإسلامى.. وشيئاً فشيئاً أصبح الفقهاء هم رجال القانون الذين يحفظون النظام القائم ويعبرون عن سياساته، وبذلك فقد المجتمع الإسلامى حريته الفكرية بعد أن فقد حريته السياسية .

### والحرية هى أم التعددية فإذا لم تعد حرية فليس هناك تعددية

ومع هذا فإن المجتمع الإسلامى بحكم الحيوية للفائقة للإسلام والروح الثورية والتحررية للقرآن، لم يفقد صوراً عديدة "لتعددية" فظهر فى العصر العباسى فى بغداد ما لم يظهر فى روما من التعددية الفكرية ما بين الإلحاد (أو الزندقة كما كانوا يقولون) حتى التزمت فظهرت للطرق الصوفية وازدهرت بينما انتعشت دعوة "إخوان الصفا" الغامضة المتحررة ووجدت من الملل والنحل ما ملأ كتاب ابن حزم والشهرستانى، وما يصعب تصوّره الآن، وقرأنا عن ندوات تجمع الصوفى، والملحد والمتكلم والفقيه لا يرفض أى واحد منهم الآخر، ولكن بكله إلى خالفه .

أما فى القضية الحساسة "المرأة" التى كان يمكن أن تكون أصلاً لعدد كبير من التعدديات فإن إشارات القرآن إلى تحريرها ومساواتها، وممارستها الرسول المتعاطفة مع المرأة. لم تتجح كلها فى اقتلاع "حمية الجاهلية" التى انتقلت من العهد الجاهلى حتى العصور التالية.. وكان المجتمع الجاهلى الذى



يقوم على الذهب والسلب لا يعترف بالمرأة لأنها لا تحارب ولا تأتي بغنيمة وترسب هذا المعنى في نفسية المسلمين حتى بعد أن تغير المناخ الاجتماعي في بغداد، وقد حل هذا المجتمع مشكلة المرأة باتخاذ الإماء (الجواري) والقيان والسماح لهن بأداء دور يكسر حدة إبعاد المرأة عن الحياة وحجبها في البيوت بحيث سمح هذا التطور بظهور صور من المجتمع المختلط وإن لم تكن للصورة سليمة ..



فإذا كان انعدام التعددية في المجتمعات الإسلامية إنما يعود بالدرجة الأولى إلى فقد هذه المجتمعات لحياتها السياسية والفكرية، وليس إلى سبب أصولي في الإسلام فإن استعادة هذه الحرية يمكن أن تحقق التعددية، وتلك هي المشكلة التي يكون على المجتمع الإسلامي الحديث أن يجابهها بقوة، ذلك أن الألفة الطويلة لعهود الانغلاق كانت تطمس الإشارات المتكررة للقرآن الكريم عن الحريات والتعدديات خاصة بعد أن قام المفسرون بتأويلها تأويلات تميل بها عن هدفها كما حدث بالنسبة لحرية الاعتقاد يدل على ذلك متابعة المفكرين الإسلاميين المحدثين لما ذهب إليه الفقهاء القدامى من تطبيق حد الردة على كل من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، إذا رفض الاستتابة، وهو نص مناقض لكل آيات حرية الاعتقاد في القرآن الكريم التي عرضنا لها، بل ومناقض لسلوك وعمل الرسول الذي لم يحدث أبدا أن أوقع حدا لمجرد تغيير الدين، وإنما ضم إلى تلك مقاومة الدولة والتخلي عن الجماعة والانحياز إلى الأعداء ..

وهو ما يدل على ضرورة معالجة القضية في صورتها التي يمكن أن تأخذها عمليا معالجة لا تخشى المصارحة بل تقوم على المجابهة ...

## الفصل الثالث

### تقرير تعددية الأديان

---

يصل القرآن إلى الغاية في التعددية عندما يقرر - وهو الذي يختلف عن المسيحية واليهودية وبقية الأديان الأخرى - قبول وجود هذه الأديان والتعايش معها ..

وهذا الموقف الفريد - لأننا لا نعلم مثيلاً له بين الديانات الأخرى - يعود إلى سببين أولهما تاريخي وثانيهما موضوعي .

أما السبب التاريخي فإنه يعود إلى النشأة التاريخية للديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

فكما هو معروف فقد ولد سيدنا إبراهيم في العراق وعاش ربها من الدهر في "أور" "الكلدانية" ثم تنقل ما بين مصر وفلسطين حتى مات ونفـس في بئر سبع .

وكانت زوجة إبراهيم "سارة" عاقراً فدفعته بـسيدة جاءت بـها من مصر هي هاجر إليه ليتزوجها عسى أن تلد له ولداً. وهذا ما حدث فقد ولدت له هاجر بكر لبناؤه "إسماعيل" وتملك الغيظ والغيرة سارة، ودفعته



زوجها لأن يبعد هاجر وأبنتها عنها. فأخذهما إلى الحجاز وأودعهما ذلك المكان الذي سيصبح أقدس الأماكن، وتركهما. وبعد فترة اشتد العطش بها وبطفلهما، وأخذت تروح وتجيئ بحثاً عن المياه حتى عثرت على بئر زمزم فارتوت، ولاد بالبئر نفر من العرب، ونشأ إسماعيل معهم وتزوج منهم وأصبح رأس العرب العدنانيين الذي سيولد منهم رسول الإسلام العظيم محمد بن عبد الله .

وقد لا يفهم الإنسان الحكمة في هذه العملية كلها، وقد يستشعر غوطاً من سارة التي أصبحت على إبعاد هاجر وإبراهيم الذي أطاعها، ولكنهما كانا مسيرين بإرادة الله وبعنايته الذي شاء أن يستقل هذا الفرع من أسرة إبراهيم بدين هو الإسلام.. ويشعب هو العرب .

ولنعد إلى السياق فبعد أن عاد إبراهيم إلى موطنه لوحى إليه الله تعالى أن سيرزق من سارة العجوز بابنين هما إسحق، ثم يعقوب .

ومن يعقوب الذي يطلق عليه إسرائيل جاءت الأسباط التي كونت شعب بنى إسرائيل وتكرر بالنسبة ليعقوب ما حدث بالنسبة لإبراهيم فقد وقعت المجاعة للمجاعة بديارهم وأرسل يعقوب بعض أبنائه إلى مصر ليمتاروا منها وغار الأبناء من أخيهما الصغير يوسف الذي كان والده يؤثـره بالحب.. فتأمروا عليه وباعوه بدورهم لأحد حكام مصر .

وظفر يوسف باحترام الحاكم عندما فسر له حلمه المشهور عن سبع بقرات عجاف تأكل سبع بقرات سمان. بأن سيحدث في البلاد قحط يستمر سبع سنوات.. وعينه مديراً لخطّة مقاومة للقحط .

وعندما جاء للمرة الثانية – أخوته – عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار الأسرة كلها فجاءوا وأقاموا في إحدى مناطق الشرقية بالوجه



للبحري، وأمضوا أجيالا عديدة تكاثروا فيها حتى ضاقت بهم المصريون فاستعبدوهم وشغلوهم في بناء المعابد (وهذا لا ينطبق على الأهرام لأنه جاء بعد الأهرام بمئات، وربما آلاف السنين) حتى ظهر منهم موسى الذي تربي في بيت فرعون ونشأ كنبيل مصري ولكنه تبني قضية بني إسرائيل ودخل في صراع مع فرعون وأيده الله وجعله نبيا وكتب له النصر على فرعون بحيث خرجوا من مصر "بيت العبودية" فذهبوا إلى فلسطين "ليستعبدوا" الفلسطينيين وتوالت الأجيال حتى ظهر فيهم عيسى السيد المسيح الذي أراد هداية خراف بني إسرائيل الضالة فانقلبوا عليه وتوصلوا إلى محاكمته، وصلبه "وما صلبوه.. ولكن شبه لهم" .

وبعد قرابة ستة قرون من ظهور المسيحية أذن الله تعالى بظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله وهو سليل إسماعيل بن إبراهيم .

وكادت القضية تتكرر عندما أهدى المقوقس للرسول مارية المصرية القبطية، وعندما أنجبت من الرسول وولدت له إبراهيم.. ولكن الله تعالى لم يشأ لإبراهيم أن يعيش فمات طفلا .

وهكذا نجد أن الديانات الثلاث نشأت عن أب واحد، وهو ما يجعلنا نفهم كلمة الرسول عن الأنبياء أنهم "أبناء علات" أبوهم واحد ولمهاتهم شتى، وارتبطت تاريخيا وجغرافيا بمكان وزمان متقارب قبل أن يتفرغ كل دين ويذهب إلى قارات الأرض، وكان يفترض أن تكون العلاقة بينهم كالعلاقة ما بين الأخوة، ولكن سدت كل دين ضائقوا بالدين الآخر.. وساد الجميع نوع من الفتور، إن لم يكن العداء.. وكانت العلاقة على أسوأها ما بين المسيحيين من ناحية واليهود والمسلمين من ناحية أخرى، وكانت على أخفها ما بين المسلمين من ناحية والمسيحيين واليهود من ناحية أخرى، ذلك لأن الإسلام كان عليه كآخر الأديان أن يحدد الموقف بالنسبة للأديان التي سبقته فوضع



مبدأ القبول لكل الأديان، وحرية أصحاب كل دين في ممارسة دينهم دون أى تقييد، وتطبيقاً لهذا المبدأ ظفر المسيحيون واليهود بالحرية الدينية الكاملة .

ويغلب أن تنق للحكمة الإلهية فى الطريقة التى ظهرت بها الأديان الثلاثة، والسياق الذى أخذته فى حين أن إنعام النظر يمكن أن يكشف فى كل حركة منها حكمة فقد شاء الله تعالى أن يظهر إبراهيم فى الجناح الأيسر فى المنطقة العربية. ويغرس دينه فيها، ثم أراد الله أن يسكن أحفاده فى مصر ليظهر موسى ويعلم اليهودية ويقود بنى إسرائيل إلى فلسطين ليظهر فيها بعد عدة قرون المسيح ويعلم المسيحية.. وبعد عدة قرون أخرى أعلن محمد بن عبد الله - سليل إسماعيل الذى أبعد إلى الحجاز - الإسلام .

ولا جدال أن فى إرادة الله تعالى وجود الأديان الثلاثة جنباً إلى جنب حكمة كبيرة فقد أراد لها أن تتحد فى الأب وتختلف فى الأم فتكسبون "لبناء علالت" كما قال الرسول ليتحقق فيها عنصر من الوحدة وعنصر آخر من التميز كما لم يشأ أن ينفرد واحد منها بالبشرية، فهذا يتعارض مع التعددية التى هى فى طبيعة المجتمع البشرى، وما لا يكون هناك مفر منه، وعادة ما يفضل الأب أن يكون لأبنة الواحد أخ يلاعبه ويكسر فيه حدة الاحتكار ويحقق كل ما فى "التجمع" من مزايا سواء كانت فى العاطفة أو فى الإضافة، التى يضعها الثانى إلى الأول والثالث إلى الثانى .

فوجود أديان ثلاثة التى هى الحد الأدنى للجمع، وتضاف كل منها بمعالم مميزة يمثل تعددية "الأسرة" التى تعرف أبناءها قواعد التعامل والأخذ والعطاء وما يكون لها وما يكون لغيرها. وأداب الائتلاف والاختلاف وأن يكمل ما لدى الواحد ما ينقص الآخر. فاليهودية بتوحيدها الصلاد، والمسيحية بمحبتها والإسلام بعنله. كلها تمثل التكامل المطلوب فى عالم القيم .

إن التكليف الإسلامى لهذه الدرجة من تعدد الديانات على أساس للتعايش والتسامح والتكامل هو أفضل للخيارات فهو أفضل من وجود دين



واحد فحسب لن يتجاوب مع الطبيعة البشرية، ويحرم من مزايا المنافسة  
وشائج القربى فى وقت واحد. وهو أفضل من وجود عشرات الأديان الذى  
يؤدى إلى التفتت. وقيام العلاقات التى توجدتها التعددية على أساس السماح  
تمثل العطاء والتكامل وهو الوضع الأصولى لأنها كلها تنهل إلى إله واحد  
وتنادى بقيم الحب والخير والعلى وما الذى يدفع ديننا منها لأن يتكاثر على  
حساب الآخر وفى كل دين مئات الملايين ولكل دين نكهته وضرورته  
وأضافته إلى الحضارة "لكم دينكم ولى دين".

إن الدين هو البيت الكبير الذى يضم على الأقل وما نحن بصدد،  
الأديان الأخوة "اليهودية والمسيحية والإسلام" الثلاثة، وأن يكون لكل واحد  
منها دور فيه يمثل قدرا من استقلال داخل الإطار الواحد، وأن يحسب كل  
واحد نفسه وأبناءه لا يعنى بالضرورة أن يكسره أخويه وأبناءهما أو ألا  
يخصهم بجانب من الحب لأن الحب يتسع للجميع ويسعد به الجميع .

وجود أخوة ثلاث فى البيت أفضل من أن يستأثر واحد فحسب  
بالبيت، لأنه وإن كان البيت سيصبح خالصا له، فسيكون عليه مسئولية القيام  
بنفقاته وأعبائه ثم يمكن أن يقع فى مزالق "المنفرد" الذى تملكه الأسرة  
والأنانية، ولا يجد شريكا يكبح جماحه ويتحمل معه الخسارة. أما للريح فلن  
استخدام العقل واستلهاهم القلب يضاعفه ويجعله أكثر مما كان يمكن للفرد  
وحده أن يصل إليه .

• • •

#### هذا عن السبب التاريخى ..

أما السبب الموضوعى لتقرير الإسلام تعددية الأديان، فإنه يعود إلى  
تكييف الإسلام لفكرة "الله" باعتباره خالق الكون بأسره، والوجود كله. فى  
حين أنه فى الفلسفة كان مجرد "فرض لحل سلسلة الخلق" دون أن يتضمن



هذا الفرض بالضرورة خصائص الحياة والفعالية والمقدرة الخ.. كما انه فى الأديان الأخرى كان إلهها محليا، للمصريين أو البابليين أو بنى إسرائيل، بينما ألقت عليه الوثنية بأوضاع ولوثات تصوراتها الفجة والبدائية، إن "الله" فى الإسلام هو خالق الكون بأسره وجابل البشرية، وأصل القيم العليا من حكمة وقدره وعدل وخير وسلام الخ.. ووضع النظم التى يسير عليها الكون كما يسير عليها المجتمع البشرى، وهو الذى أنزل الديانات كلها من لدن آدم حتى محمد، بما فى ذلك رسل وديانات لم يقصص علينا القرآن أنباءهم. فما دام الأمر كذلك فلا يفترض أن يكون فى تعددية الأديان تناقض أو تناقض لأنه تعالى هو الذى أنزلها ولأنه يرسل الرسل وينزل الديانات تبعاً لحاجات البشرية المتفاوتة والمتعددة حسب الأزمان والعصور والأجناس والملابسات التى تتحكم فى كل جنس وشعب. وهذه الأديان كلها تؤثر، وتتأثر بأوضاع مجتمعاتها، ولا يستشعر القرآن حرجاً أو حساسية فى ذلك لأن كل شئ من خلق الله.. فلن يكن فرار من قدر الله إلا إلى قدر الله، وعندما سئل الرسول "أرأيت رقى نسترقها ودواء نتداوى به وثقاة نقيها هل ترد من قدر الله فقال هى من قدر الله" ولأن الله تعالى وضع أصولاً ومبادئ تحكم المجتمع. وفى الوقت الذى لا يمكن أن يغيب مقال ذرة فى هذا الكون اللانهائى عن علم الله. فإن الإنسان ليعطى نفسه أهمية قد لا تكون له إذا تصور أن الله تعالى ليس لديه عمل إلا متابعتة، فأين هو من ملك الله ..

من هنا فإن منطق الخطأ والصواب لا يمكن أن يطبق على الأديان. فكل دين يمثل إحدى احتياجات البشرية. واختلافها يعود إلى اختلاف الاحتياجات والملابسات والعصور والبيئات .

وليس هناك حساسية فى القول بأن الأديان، وأن كانت منزلة من الله فإنها تصبح "ظاهرة اجتماعية" عندما يتعامل الناس معها. الأمر الذى أشعر إليه القرآن عندما تحدث عن غلبة الأهواء التى تحرف الكلم عن حقيقته



وأثار مر الغداة وكر العشى وتوالى القرون وكيف تقسموا القلوب عندما يطول عليها الأمد وتتجمد المشاعر والعواطف أو تتقلب الخ..

يجب أذن التفريق بين ما جاء فى القرآن الكريم الذى هو التعبير الحقيقى عن الإسلام. وبين ما ينتهى إليه رجال الدين فى كل عصر ولون من فهم حقيقة الرسالات الإلهية لأن هذا الفهم لا بد وأن يتأثر برواسب فكر هذه المجتمعات. وقصور الإدراك البشرى وغلبة المصلحة والذاتية على نفوس الذين يتحدثون باسم الأديان ويرون أنفسهم حراسها وحفظتها وما يسلك إليهم مع احتكارهم لتمثيل الدين من انحرافات .

وهذه الظواهر توجد فى كل المجتمعات ويتأثر بها رجال الدين من مسلمين أو مسيحيين أو يهوديين الخ.. وهى السر فيما يصدره رجال الدين من أحكام ينسبوننها إلى الدين .

وموقف الإسلام الذى جلاءه القرآن الكريم واضح دون خفاء، وقد كرره القرآن مرارا وتكرارا فى عديد من الآيات. أن الله تعالى أراد هذه التعددية الدينية، بما تتضمنه من اختلافات لا مناص عنها بحكم ما أرسله الله من أسس يسير عليها المجتمع. ولما كان الاختلاف ليس فحشا ووردا، بل هو مطلوب، فإن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيما كانوا فيه يختلفون يسوم القيامة .

وبهذا حسم القرآن شافة الخلاف، وحرم على كل فريق أن يدعى الأفضلية وأن يرى أن الآخرين ليسوا على شئ، ولأن يدعى الجنة لنفسه والنار للمخالفين فهذا ليس من حقه، وفيه افتيات وتكلى على حق الله تعالى، وأن هذا كله "أمانى" يصدر عنها كل فريق من منطلق ذاتى والأمسر ليس بأمانى المسلمين أو أهل الكتاب أو غيرهم ..



وحكمة الله تعالى في هذا كله أن الأديان رغم اختلافها تنتهي كلها إلى حقيقة واحدة هي الألوهية فالاختلافات لا تنال الجوهر - كما يبدو لبعض الذين يحول استغراقهم في أنفسهم دون فهم الآخرين. فالملايين في أوروبا وأمريكا الذين يقولون "أبانا الذي في السماء" لا يفهمون منه إلا ما يفهمه المسلمون من حديث "الناس عيال الله" ومن المؤكد أنهم لا يفهمون، ولا يعنون بالآفانيم الثلاثة وعلاقة كل واحد بالآخر، أما التعميد في المياه، أو تناول القربان فليس إلا طقوس وتقاليد لا تضر، وقد تفيد، وفي هذه الدول التي لا تؤمن بالإسلام يعمل الناس بجد وإخلاص ولديهم الصدق في القول والإتقان في الأداء والوفاء بالعهود والخلق الحسن، كما يعد كذب السياسة فيما يدلون به من وقائع أو بيانات أمام القضاء أو مؤسسات الدولة جريمة كبرى قد لا يكفر عنها إلا بالاستقالة كما حدث بالنسبة لنيكسون الذي اتهم بالتجسس على خصومه السياسيين والرئيس كينيدي بالنسبة لعلاقته بإحدى موظفات البيت الأبيض، وقد تعرض للوم والتفريع ونفع غرامة كبيرة والحرمان من ممارسة المحاماة لمدة خمس سنوات في حين أن معظم قادة الدول الإسلامية ليس لهم من كلام إلا الكذب والتزييف وليس لهم من عمل إلا الاستبداد والتحكم، وبهذا فإن المجتمعات الأوربية قد تكون أقرب إلى الله، وإلى المثل والقيم الإسلامية، من عديد من المجتمعات التي تدعى الإسلام .

أذكر أنني كنت في شتاء عام ١٩٤٨ في معتقل الطور مع الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا بعد الحل الأول للإخوان. وكان المعتقل الذي غرس وسط الصحراء القاحلة يبدو ليلاً متلكئاً الأضواء بفضل المصابيح الكهربائية التي أقامتها إدارة المعتقل لغرض الحراسة وبفضل ما توصل إليه الإخوان خاصة الكهربائيين منهم من استخدامات للطاقة الكهربائية في تسخين المياه للاستحمام والغسل والطهي الخ.. وكنت أقول للإخوان إلا تظنون أن الله تعالى سيدخل "أديسن" الجنة، بعد أن أتاح للبشرية كل هذه الأنوار فيردون بقوة "كلا أنه لم يؤمن بالله ولا الرسول" وكأنهم تصوروا أن الإسلام ظهر في أمريكا وأن الرسول دعا أديسن والأمريكيين إلى الإسلام فرفضوا .



وكننت أرد عليهم - صدق الله ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لمسكتكم خشية الأنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

وقد أن للدعاة الإسلاميين أن يعلموا أنه ليس مطلوباً منهم، أن يكسبوا للإسلام مؤمنين بأديان أخرى، وليس من حقهم أن يحكموا على الآخرين بالنار كأن مفاتيح الجنة والنار في أيديهم. أن هذا منتهى الأفتريات والتألى بل الوقاح، فى حق الله تعالى. أن كل ما طلبه القرآن - بعد أن قال ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم<sup>(١)</sup>﴾. - هو أن يكونوا "شهداء على الناس" ويقتضى هذا أن يعرفوهم على الإسلام ثم يتركوهم لأنفسهم لأن تغيير الدين ليس مسألة إيمان قلبى ونظري فحسب، ولكنه يتطلب تعقيدات اجتماعية وترتيبات فى الميراث وغيره، ولأن الهداية من الله وليست من الرسول ..

ولكن يبدو أن كل هذا لم يفهم من المسلمين المعاصرين، ولم تؤثر فى أحكامهم وتصوراتهم أو فى النزعة الدفينة فى نفوس بعضهم، فقد قرأت عدداً خاصاً من مجلة التوحيد عن التعددية حاول أن يطرح هذه القضية بكل إخلاص وعمق ورغبة فى التوصل إلى الحقيقة، ومع هذا فإن التيار الفكرى الكاسح الذى يسيطر على الفكر الدينى جعل محور المعالجة يدور حول أمرين :

الأول: هل يمكن قبول تعدد الأديان، وهلا يعنى هذا خطأ البعض وصواب الآخر ..

والثانى: ما هو مصير الذين لا يؤمنون بالإسلام يوم القيامة وهل سيكون مصيرهم إلى النار<sup>(٢)</sup> ..

---

(١) أنظر شرحها فيما سبلى ..

(٢) مجلة التوحيد السنة التاسعة عشر خريف ١٤٢١ - ٢٠٠٠ طهران - قم - أنظر ص ١٥ - والمعد كلة عن التعددية .



ثم لا يقفون عند هذا، ولكنهم يقطعون بأنهم في الجنة وأن مخالفهم في النار<sup>(١)</sup>.

وأى جرأة على الله مثل هذه الجرأة وهل يملكون هم مفاتيح النار أو يقدرون على زج الناس فيها.. وعلى أى أساس بنوا هذه النتيجة الفاسدة ولين هم من رحمة الله التي لا تحدد، والتي تثيب بسبعمئة ضعف ولا تعد رحمة الأم بأبنائها إلا جزء من مائة جزء هي رحمة الله.. وفي النهاية قد لا يـزج في النار إلا بالمارد المتمرد، كما جاء في أثر كريم. سنشير إليه في فقرة تالية ..

وقد عالج هذا الموضوع معالجة وافية فقيه أزهري مجدد لم يظفر بالشهرة التي كان يستحقها هو الشيخ عبد المتعال الصعيدي رحمه الله في كتابه "حرية الفكر في الإسلام" الذي ظهر في أربعينات القرن العشرين، وسنعرض هنا للفقرة التي كتبها على طولها لتتضح الصورة .

فتحت العنوان الفرعي "رأي الجاحظ والعنبري في عذر غير المعاند في الحق" قال الشيخ عبد المتعال الصعيدي ..

وهناك فريق آخر على رأسه الجاحظ والعنبري من أئمة المعتزلة يرى أنه لا إثم على المجتهد مطلقاً، وإنما الإثم على المعاند فقط، وهو السذّي يعرف الحق ولا يؤمن به عناداً واستكباراً، فالمجتهد المخطئ عند هذا الفريق غير آثم، ولو أداه لجهته إلى الكفر الصريح، لأن تكليفه عندهم بنقيض اجتهاده تكليف بما لا يطلق، والتكليف بما لا يطلق ممنوع شرعاً وعقلاً، وقد أجاب الجمهور عن هذا بأن التكليف بما لا يطلق ممكن غير ممنوع عقلاً ولا عادة، فلا يكون من المستحيل في شيء، وفي هذا الجواب

---

(١) فإذا قيل أن الله تعالى قد قضى بالجحيم لفئات من الناس قلنا إنه ليس لنا أن نعين هذه الفئات أو نزعم أن أشخاصاً معينين يخطون فيها .



من الضعف ما هو ظاهر، لأن الله تعالى يقول: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. {البقرة} ٢٨٦ فهو ممتنع شرعا وعقلا .

ولا شك أن مذهب هذا الفريق ظاهر في نفس الإثم مطلقا عن المجتهد المخطئ بمقتضى دليهم السابق، ولكن بعض المتكلفين رأى متطفلا عليه أن يقيد به بعض المسائل الخلافية بين الفرق الإسلامية، مثل نفي رؤية الباري تعالى، ومثل القول بخلق القرآن، فلا يدخل فيه ما هو من الكفر الصريح، ولكن هذا خلاف مذهب هذا الفريق كما هو ظاهر .

وقد استدل الجمهور لمذهبهم بإجماع المسلمين قبل ظهور هذا الفريق على وجوب قتال الكفار مطلقا، وعلى أنهم من أهل النار مطلقا، وهذا من غير فرق بين معاند منهم وغير معاند، ولو كانوا غير آثمين لما ساء قتالهم، ولما كانوا من أهل النار أيضا .

والشق الأول من دليل الجمهور مبنى على مذهبهم في وجوب قتال الكفار على كفرهم، وقد ثبت في عصرنا بطلان هذا المذهب، لقوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ {البقرة} ٢٥٦ وكل آيات القتال في القرآن ظاهر في أن قتالنا للكفار مسبوق بقتالهم لنا، فنحن نقاتلهم على قتالهم لنا، لا على كفرهم، وقد بينت هذا في بعض كتبي، وبينه السيد محمد رشيد رضا في تفسير الآية السابقة من سورة البقرة، ولا داعي إلى ذكره الآن هنا، وسيأتي في موضوعه من هذا الكتاب .

والشق الثاني من دليل الجمهور فيه مصادرة على المطلوب، لأن أصل النزاع بين الجمهور وهذا الفريق في كون الكفار غير المعاندين آثمين ومن أهل النار، أو غير آثمين ولا من أهل النار، ودعوى الإجماع في ذلك لا قيمة لها، لأن الإجماع لا بد له من دليل يستند عليه، والدليل قائم عند هذا



الفريق على أن الكفار غير المعاندين غير آثمين، وهذا إلى إنكار بعضهم للاحتجاج به .

وقد ذهب الشيخ محمود شلتوت في كتابه - الإسلام عقيدة وشريعة - إلى مثل هذا، فنذكر أن من لم يؤمن بالله ولا برسوله ولا بنحو ذلك لا تجرى عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم بعض، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشئ من ذلك يكون كافراً عند الله يخلد في النار، وإنما معناه أنه لا تجرى عليه في الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلمين من العبادات، ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل الخنزير والاتجار بهما، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يرثه قريبه المسلم في ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بكفره عند الله فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشئ منها بعد أن بلغته الدعوة على وجهها الصحيح، واقتنع بها فيما بينه وبين نفسه، ولكنه أبى أن يقنعها ويشهد بها عنسداً واستكباراً، أو طمعاً في مال زائل أو جاه زائف، أو خوفاً من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلك العقائد، أو بلغته بصورة منفردة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكر طلباً للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكون كافراً يستحق الخلود في النار عند الله .

ثم قال: ومن هنا كانت الشعوب النائية التي لم تصل إليها عقيدة الإسلام، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفردة، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهدهم في بحثها - بمنجاة من العقاب الأخرى للكافرين، ولا يطلق عليهم اسم الكفر. والشرك الذي جاء في القرآن أن الله لا يغفره هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار، الذي قال الله في أصحابه ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ {١٤ النمل} .



وهذا صريح في اختيار الشيخ محمود شلتوت لمذهب هذا الفريق،  
لولا أنه خلط بين مذهب هذا الفريق ومذهب الجمهور فيما رتبته على ما  
ذهب إليه من النتيجة المقصودة، وهو أن من كان من الكفار من أهل النظر  
وظل ينظر ويفكر طلباً للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فبقه لا يكون  
كافراً يستحق الخلود في النار عند الله .

فإن هذا ليس محل الخلاف بين مذهب الجمهور ومذهب هذا الفريق  
في الكافر غير المعتد، بل هو محل اتفاق بين الجمهور وهذا الفريق، لأنسه  
مات طالباً للحق ولم يصل إلى رأى قاطع، وليس هذا هو الذي يخالف فيه  
هذا الفريق مذهب الجمهور، وإنما الذي يخالف فيه الجمهور هو من نظر  
واجتهد فلدأ اجتهد في حياته إلى الكفر الصريح، وهذا هو الذي لم يشر  
الشيخ محمود شلتوت إليه، مع أنه فيما نقلناه عنه يرى رأى هذا الفريق  
الذي يفرق بين الكافر المعتد وغير المعتد .

وللبحث بعد هذا كله مجال فيمن هو المعتد؟ فهل هو الذي يعرف  
الحق ولا يؤمن به ولو اقتصر على نفسه، فلم يحاول منع غيره من الإيمان  
بوسيلة قهرية أو جدلية، أو الذي لا يقتصر على نفسه بل يحاول ذلك مع  
غيره ؟ ومما يفيد في هذا البحث خلاف الجمهور في أبى طالب عم النبي ﷺ  
فقد ذهب بعضهم إلى أنه مات على شركه، ثم ذهب إلى أن حمايته للنبي من  
المشركين تنفعه في أخراه، وتتجيه من عذاب النار إلى ما لا ينكر من  
العذاب، لأنه يبلغ في خوفه إلى أبعد حد .

ولا يفوتني بعد هذا أن أضيف إلى نقدي السابق للشيخ شلتوت نقداً  
آخر لإخفائه نسبة ذلك الرأى إلى صاحبيه القديمين - الجاحظ والعنبري -  
وهما من أعلامنا الأقدمين، ونسبته إليهما تجعل له قيمة أكثر من نسبته إلى  
الشيخ شلتوت، وما كان هذا ليخفى عليه وهو رأى مشهور درسه وهو طالب



فى كتاب مشهور من كتب علم أصول الفقه. وإن كنا على عهد الطلب لم ندرك قيمة هذا الرأى فى عصرنا، لما كان يحيط بنا من الجمود الدينى والفكرى، فمر علينا فى ذلك الكتاب كما مر غيره من مسائل علم أصول الفقه، ولم ندرك مدى ما وصلت به سماحة الإسلام إلى حد لا يوجد فى غيره من الأديان، ولم ندرك أن الإسلام يصل به إلى أن يكون أسمح دين لبنى الإنسان\* انتهى كلام الشيخ عبد المتعال الصعدي .

وما يمكننا إضافته - على طريقتنا فى تقديم الاستشهاد بالقرآن واستخلاص الأحكام منه، إن نقول أن القرآن يتضمن العديد من الآيات التى تؤيد حرية العقيدة وتتقبل الأديان وتدع الاختلاف فيها إلى الله .

#### من هذه الآيات ...

□ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . {البقرة ٦٢}

□ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ . {البقرة ١١٣}

□ ﴿قُلْ آمَنَا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ . {٨٤ آل عمران}

□ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلْقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ . {١١٨-١١٩ هود}



□ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ. وَإِنَّا وَإِيسَاكُم لَعَلَى هُدًى لَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قُلْ لَا تَسْتَلُونَنَا بِأَجْرٍ مِنَّا وَلَا نَسْتَلُكُمْ عَمَّا تَعْلَمُونَ﴾ . {٢٤ - ٢٥ سبأ}

□ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ .

{١ - ٦ الكافرون}

وتحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حديثاً منصفاً، يمثل الحياد والنزاهة التامة مما كان يمكن أن يكون درسا في الموضوعية والأنصاف، ففي الوقت الذي ندد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه اعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال ..

□ ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَقِطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا زَلَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . {٧٥ آل عمران}

□ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْسَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ . {١١٣ - ١١٥ آل عمران}

□ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ. وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ . {١٩٩ آل عمران}

□ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِبَ عَلَيْهِمُ



ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلسى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا لآمنا فآكتبنا مع الشاهدين).  
{المائدة ٨٣}

واستغرب القرآن أن يدعو اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال :  
□ «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله». {المائدة ٤٣}

### وتحدث عن الإنجيل ..

□ «.. فيه هدى ونور ومصادقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين». {المائدة ٤٦}

□ «.. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون». {المائدة ٤٧}

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين أولهم، أن يترك ذلك لله. وأنها أمم قد خلت لها ما كسبت "ولا تسألون عما كانوا يفعلون. وأن الله أعلم بمن يضل عن سبيله" ...

### وقال القرآن بصريح العبارة ..

□ «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتم» (١)  
{المائدة ١٠٥}

□ «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون». {البقرة ١٣٤}

---

(١) لقد ألتبس معنى هذه الآية على بعض الصحابة وظنوا أنها تنسخ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بين لهم الرسول أنها عن النصارى واليهود، ويبدو أن هذا التفسير لم يصل إلى جميع الصحابة فوجد في عهد أبى بكر من يقع في اللبس حتى بينها لهم (أنظر مسند الإمام أحمد بن حنبل) .. (الفتح للربانى) ج ١٨ ص ١٣٤ .



□ ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونِ عَمَّا أُجْرَمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا يَعْلَمُونَ﴾ . {٢٥ سبا}

□ ﴿إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ .

{٣٠ النجم}

□ ﴿إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

{٧ القلم}

ونحن لا نعلم على وجه القطع هل أرسل الله تعالى إلى أهل الصين والهند واليابان رسولا أم لا، ولكننا نعلم يقينا أن الله تعالى قال ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ {١٥ الإسراء}، ومن ثم فإن من الخطأ الحكم بأن اتباع بوذا وكونفوشيوس وهم - أضعاف المسلمين والمسيحيين واليهود - في النار<sup>(١)</sup> .

ولما كانت السنة مبينة للقرآن ومطبقة لتوجيهاته فإن الرسول ما أن وصل المدينة حتى وضع وثيقة وحد فيها بين كل من يسكن المدينة وأعتبرهم "أمة دون الناس" لليهود دينهم وللمسلمين دينهم\* وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الآثم الخ..<sup>(٢)</sup>

وهناك أثر له دلالة عميقة هو ما جاء في مشكاة المصابيح، مرويًا عن عبد الله بن عمر قال كنا نسير مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فمر بقوم فقال "من القوم" قالوا نحن المسلمون، وامرأة تحصب (أي توقد) بقنرها ومعها لبن لها فإذا ارتفع وهج تتحت به فأتت النبي ﷺ فقالت "أنت رسول الله؟" قال نعم قالت "بابي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت

(١) حقا إن الله تعالى قال "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" {٢٤ فاطر} ولم يقل رسول.. فإذا كان بوذا وكونفوشيوس ينطبق عليهم وصف نذير فإنهم يكونون حجة على أقوامهم خاصة عندما تتفق للقيم التي يدعون إليها مع القيم الإسلامية .

(٢) تاريخ السيرة النبوية لأبن هشام ص ٢٤٩ ج ٢ .



"إن الأم لا تلقى ولدها في النار" فأكذب رسول الله ﷺ بيكى ثم رفع رأسه إليها فقال "إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله" رواه ابن ماجه (١) .

فهل هناك تعددية دينية دون حساسية مثل هذه.. ولماذا لا يقبل المسلمون اليوم ما قبله الرسول نفسه عندما دخل المدينة، ولا يذهبون إلى ما ذهب إليه مما هو أقرب إلى رحمة الله ؟ ..

\*\*\*

ومنذ أن كتب الرسول وثيقة المدينة، وقال إن الأنبياء أخوة عائلات وأن الأديان هي "البيت الكبير" الجميل لولا ثغرة فيه، جاء الإسلام ليسسدها، ومنذ أن قال "نحن أولى بموسى منهم" وقد نزل حبل صرى من الرسول إلى أفراد من المسلمين آمنوا بتعددية الأديان وأخوة الأنبياء، ولعل أبرزهم هو ابن عربي في أبيقته المشهورة :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
وبير لرهبان وكعبة طائف	والواح تسورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

ومن ابن عربي أنتقل الحبل إلى ابن الفارض الذي قل في تقية السلوك :

وإن نار بالقرآن محراب مسجد	فما يسار بالإتجيل هيكل بيعة
وإن عبد النار المجوس وما أنطفت	كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم	سواي وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

(١) مشكاة المصابيح - المكتب الإسلامي - بيروت ج ٢ ص ٧٣٥ .



وظل هذا الحبل كامنا حتى بعثته بقظة الفكر الإسلامى فى العصر الحديث، فأعاد شوقى الفكرة فى ثوب قشيب :

رب شقت للعباد لزمان لا	كتب بها، يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا ألها قويا	قله بالقوى إليك لفتاء
وإذا أثروا جميلا ببتزیه	فإن الجمال منك حياء
وإذا انشأوا التماثيل غرا	فأليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب لربابا	فالمراد الجلالة لثماء
وإذا يعبد الملوك فإن الملك	فضل تحبوه به من ثناء
وإذا تعبد البحار مع الأسماك	والعاصفات والأثواء
وسباع السماء والأرض والأرحام	والأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد	خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر شمسف	عنه الحجاب فهو ضياء

وقد لا تثير هذه الأبيات دهشة لشفاقية روح الصوفى والشاعر، ولكن الذى يثير الدهشة أن يجدها بالفاظها تقريبا لدى فقيه يمثل الفقه الشيعى وهو أكبر وأشهر آيات الله فيه إلا وهو آية الله العظمى الإمام الخمينى الذى روى عنه ..

على بوابة الخان  
والمعبد والمسجد والدير  
وقعت منهارا فى سجود  
كلك ترمقتى من هناك<sup>(١)</sup> .

(١) أنظر عدد مجلة التوحيد (طهران - قم) الخاص بالتعددية فى الإسلام (مرجع سابق) ص ٨٧ .



## الفصل الرابع

### الحكمة

#### أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية

يعجب الإنسان كيف فات على الأئمة الأعلام أن يجعلوا من الحكمة أصلاً من أصول الإسلام ومصدراً من مصادر الفقه. بعد أن ذكر القرآن الكريم الحكمة مراراً وتكراراً، وقرنها بالكتاب .

أغلب الظن أنهم عزفوا عن الاعتراف بأصل ومصدر مفتوح غير محدد أو منضبط، يسمح بالانفتاح والتعددية، وهي صفات يضيق بها الفقهاء عادة، لأنها تفتح عليهم باباً لا يمكنهم التحكم فيه .

وقد ذكر القرآن الكريم الحكمة في آيات عديدة منسوبة إلى الرسول ومقترنة بالكتاب مثل :

- (ويعلمهم الكتاب والحكمة) . {البقرة ١٢٩}
- (ويعلمكم الكتاب والحكمة) . {البقرة ١٥١}
- (وانكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) . {البقرة ٢٣}



□ «واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة. إن الله كان لطيفاً خبيراً» . {الأحزاب ٣٤}

□ «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياتهم ويزكويهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» .

{الجمعة ٢}

وكان إيراد القرآن للحكمة بهذه الصفة مما دفع بالشافعي لأن يذهب إلى أن الحكمة هي السنة، لأنه ليس للآيات من تلويل إلا هذا، وهو أمر كان يمكن قبوله لولا أن القرآن الكريم استخدم كلمة الحكمة في آيات أخرى كثيرة بمعنى ينفي أن يكون المقصود بها السنة. فقد أتى الله داود الحكمة .

□ «وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه ما يشاء، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو الفضل على العالمين» . {البقرة ٢٥١}

□ «وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» . {ص ٢٠}

كما أتاهما "الحكمة" لقمان :

□ «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله. ومن يشكر الله فإنه يكثر من فضله، ومن كفر فإن الله غني حميد» . {لقمان ١٢}

كما أتاه عيسى :

□ «وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» . {آل عمران ٤٨}

□ «ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون» . {الزخرف ٦٢}

بل أتاهم النبيين :



□ «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وإنا معكم من الشاهدين» .

{٨١ آل عمران}

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

□ «يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب» . {٢٦٩ البقرة}

□ «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» . {١٢٥ النحل}

□ «حكمة بالغة، وما تغني النذر» . {٥ القمر}

\* \* \*

إزاء هذه الآيات التي تجعل للحكمة جزءا من رسالة الرسل وشويكة للكتاب، يكون علينا أن نرد على سؤال ذي شقين: الشق الأول هو ماذا يعنيه القرآن بتعبير "الحكمة"؟، والثاني هو لماذا ذكر الحكمة جنبا إلى جنب الكتاب ولم يقتصر على الكتاب وحده ..

لعل أقرب تعيين لمعنى الحكمة في القرآن هو العقل الخبير والقيم العليا، والعلم الهادي الذي يستبعد الخرافة ويحول دون أن يضل المؤمنون ..

وقد يلقي بضوء على هذا أن الله تعالى وصف نفسه في آيات كثيرة بأنه "حكيم" أو عزيز، وفي مواضع قليلة "خبيرا" .

كما قد يعيننا أن نعلم أن "الحكم" وليس هو بعيد في الاشتقاق اللغوي من كلمة "حكمة" يراد به "القضاء" أو سياسة أمور الناس، وهي كلها تحتاج أول ما تحتاج إلى الفطنة والكياسة ومعرفة طبائع الأشياء وأصول الشريعة.



والسنن التي يسير عليها المجتمع.. وهي في إجمالها لا تخرج عما أشرنا إليه من المعرفة، والعلم والخبرة .

يعزز هذا أيضا النصوص المتواترة والمتعددة في القرآن عن البحث على التفكير وإعمال العقول والتدبر فيما خلق الله وأوجده من آيات ومسنن والتعرف على آثار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون السخ.. وأدل على هذا ما جاءت به الآية ٢٧ من سورة الرعد (وكذلك أنزلناه حكما عربيا، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، مالآ من الله من ولي ولا واق). فنجد هنا الجمع ما بين القرآن والحكم والعلم في سياق واحد

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الحكمة ترادف كلمة "الفلسفة" وأن "الفيلسوف" إنما هو "محب الحكمة" وقد فهم ابن رشد الحكمة التي ذكرها القرآن بمعنى الفلسفة .

#### وجاء في مقال لأحد الباحثين عن معنى الحكمة (١) ..

إن معاني الحكمة التي حددها اللغويون والمفسرون الإصايلة في القول والفعل، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو هي العقل، والعلم والفهم، والمصلحة، والموعظة، والفلسفة، أو المعرفة بالدين والفهم فيه، والنبوة، والفقه، أو هي بحسب الطبرسي في كتابه "مجمع البيان" في تفسير القرآن " العلم الذي تعظم منفعة وتجل فائدته، وإنما قيل للعلم حكمة لأنه يمتع به عن القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن والزجر عن القبيح .

ومهما قيل أو يقال فإن الحكمة لا تخرج أبدا عن معنى السداد والصواب، ووضع الشيء في موضعه قولا وعملا فالحكيم هو الذي يحكم

---

(١) أنظر مقالا للدكتور إبراهيم العالبي مدير الدراسات والبحوث - الجامعة الإسلامية (الندن) في جريدة الحياة بعنوان ما بين الحكمة والشرعة: الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له. (الحياة ٢٠٠١/١/٦) .



الشيء، ويأتي به على مقتضى العقل الواقع لا بحسب الميول والرغبات ولا يستعجله قبل أوانه أو يمسك عنه في زمانه أو ينحرف به عن حدوده وقبوضه كما يذكر محمد جواد مغنّية في كتابه "التفسير الكاشف".

والتعريفات التي قدمها فلاسفة الإسلام للحكمة لا تختلف في جوهرها عما سبق ذكره، فهي عند الكندي "علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، لأن غرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق، وفي عمله العمل بالحق" (راجع رسائل الكندي الفلسفية)، والأمر نفسه نجده عند الفارابي وابن سينا.

أما ابن رشد فلعله خير من فصل العلاقة بين الحكمة والشريعة، وأثبت بما لا يقبل الشك أن الحكمة واجبة شرعاً وعقلاً. فهو يرى ابتداءً في كتابه "فصل المقال" أن الحكمة أو الفلسفة لو تعمقت معناها فهي ليست شيئاً أكثر من "النظر في الموجودات من حيث دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم" وهذا توجيه واضح إلى أن غاية الفلسفة في النهاية الوصول إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون، ولا أرى هل توجد للدين عموماً، وللإسلام خصوصاً، غاية أجل وأسمى من ذلك "أهـ".

نقول إننا وإن كنا نتفهم تفسير ابن رشد للحكمة فإننا نؤثر في تعريف العام - أي العقل والعلم والفهم وإدراك روح الإسلام ومقاصده وقيمه. لأن الفلسفة قد تثير معنى اصطلاحياً يحصر الحكمة في مناهات علم الكلام ويركز الاهتمام على ذات الله تعالى - كما عند المعتزلة - وكان أخرى بهم أن يستخدموا الحكمة فيما يحقق الخير للمجتمع والناس وما يصلح الأوضاع الاقتصادية والسياسية وينقلها إلى عالم الحياة الدنيا الذي تكون مفيدة وفعالة فيه، وليس إلى عالم الغيب وذات الله تعالى فضلاً عن أننا نهينا عن تفصيله



وعملها فإن اعتبار الحكمة هي الفلسفة وعكوف الفقهاء عليها أدى إلى إفساد الفلسفة، وإفساد الدين معا .

أن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التي تردت في القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا في الرد على الشك الثاني من السؤال، وهو لماذا ذكر القرآن الحكمة جنباً إلى جنب القرآن. ولم يقتصر على الكتاب وحده ؟ الرد أن الكتب السماوية سواء كانت قرآناً أو إنجيلاً أو توراة هي بالدرجة الأولى كتب هداية، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهداية، ولكنها لم تتضمن تفاصيل جزئيات ذلك. كما لم تتناول جوانب أخرى عديدة تزهى بها الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد، وفي الوقت نفسه فلا يمكن تجاهلها أو إغفالها، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقص، وهذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش به القلب، وهناك الفلسفة وطرائقها في البحث وهناك قبل هذا كله، العقل الإنساني الذي يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل في حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراد الله له - وحياً ذاتياً في نفس كل فرد يحمل النغمة الإلهية في الإنسان، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التي تعزز الدين وتكمل نقصه، وتحقق للحياة الإنسانية الثراء، والوفرة، والتعددية، وتربط ما بين القديم والجديد، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات .

ولعل الله تعالى وهو العليم بذات النفوس لم يشأ للمسلمين أن يوغلوا فيما وجههم إليه القرآن من تقوى وورع بحيث يحيف هذا على حق الحياة الدنيا وما تتطلبه من مقتضيات فتذهب حياتهم الدنيا بدعوى الحرص على الحياة الآخرة والله تعالى يريد التوازن وأن لا يفقد المسلمون حياتهم ووجودهم الدنيوي فنص على الحكمة بجانب الكتاب وأورد ذلك في الكتاب نفسه حتى لا يظن ظان أن الأخذ بها (أي للحكمة) يخالف الكتاب. لأن الله



تعالى أراد بجانب التدين الأخرى نوعاً من التدين الدنيوى، بل أنه اعترف بما تنزع إليه النفوس بحكم طبيعتها، ولم يأت الإسلام لقمع الميول والعواطف، ولكن للحيلولة دون أن تستبد الشهوات بالناس فلا يعنوا إلا بها.

ونحن لا نستبعد أن ينتهى هذا المنهج إلى ما قد يجافى الحكمة نفسها، والميل إلى بعض ما تهوى إليه الأنفس\*، ولكن لا يدق على من يتعمق فى الأمور أن يرى أن هذا إنما أريد به توقي شر أعظم. ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن الإغراق فى العبادة وشدة الحرص على تجنب صغائر الذنوب قد أضاع على المسلمين حياتهم الدنيوية، وجعلهم يشقون على أنفسهم ويلزمون بها لا يلزم، ويهدرون فى سبيل ذلك ما هو أجدى. وأنه أفقد فيهم حاسة الأولويات وواقع التعدييات. هذا كله فضلاً عن أن معالجة الأوضاع لا يمكن أن تتم بتجاهل ما تتضمنه من جوانب قد لا تروق لنا.. إذ لا بد من الاعتراف بها والتعامل معها تعاملًا موضوعيًا علميًا، أى بالحكمة، وليس بالتجاهل أو بالقمع .

ولو اقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان ممن المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من الناس لو أن يتخّنوا منه أداة تحقق مأرب خاصة، واتجاهات معينة وإضافات مجالات للحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت" يعسر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع، وهذا هو ما حدث للأسف الشديد، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" فحرموا الفكر الإسلامى الاستفادة من ثمار الحضارات البشرية، قديمة وجديدة شسرقية، وغربية. فحجروا واسعا، وحبسوا أنفسهم - والإسلام - فى دائرة مغلقة .

إن "ثورة المعرفة" فى العصر الحديث وتدفعها من أربعة أركان العالم ووصولها عبر المطابع والقياسات الفضائية والإنترنت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدى الباحث كل كنوز العالم القديم، وكسل مستجدات العصر الحديث بحيث أصبح "الكتاب" أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار



العريض للخطوط الرئيسية، أما ما يملأ الحياة فهي هذه العلوم والفنون والمعارف التي تتدفق فيما يشبه الفيضان من كل الدول المتقدمة. وأصبحت رمز ثروة وقوة العصر الحديث. ومن هنا تتضح حكمة الله تعالى في النص عليها مرجعاً وأصلاً من أصول الإسلام لأنها هي أداة التعددية والانفتاح والإفادة من كل معارف العالم وهي بعد، ما يحقق العزة والمنعة والقوة للمسلمين .

وقد طبق الرسول توجيه القرآن عندما قال "الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق بها"، وقال "اطلبوا العلم ولو في الصين"، ووجه أصحابه لتعلم اللغات وأخذ باقتراح سلمان شق الخندق الخ ..

واليوم تتفرض دعوة الإحياء الإسلامي الغبار من على الحكمة، وتعيدها إلى ما أرادها الله تعالى شريكة للكتاب في الرسالة.. وتتهل من كل معين للحكمة. من علوم، وفلسفة، وآداب وفنون دون حرج لأنها أصل نص عليه الكتاب كمصدر للإسلام، كما أنها ليست إلا تجليات للفكر الإنساني وما أودعه الله فيه من قوى تتوصل بها إلى الحقائق، وتصول، وتجول في مجالات الإبداع الإلهي المعجز وتفيد منه وتثري الحياة به، وتسعد القلوب والعقول، وتمد الحاجات - فلا تكون فاقسة مادية ونفسية - ولا احتكار للمعارف ولا سدود قائمة تحول دون الاستفادة من ذخائر الحضارة الإنسانية ..



## الفصل الخامس

### التعددية في مجتمع إسلامي

تعود الإشارات الكثيرة التي أوردناها عن التعددية في القرآن الكريم إلى وجود أصل رئيسي لها هو التصور الخاص للإسلام لما يكون عليه المجتمع البشري الذي أشرنا إليه إشارة موجزة في مقدمة هذه الرسالة، ولما كان المجتمع الإسلامي جزءاً من المجتمع البشري - حتى وإن كان له خصائصه المميزة - فإن ما يقال على المجتمع البشري يصدق بدرجات متفاوتة على المجتمع الإسلامي .

ولما كان المجتمع يضم ملايين الأفراد وآلاف الهيئات فلا بد من وجود التعددية بحكم الأمر الواقع من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى لا يمكن لأي هيئة أن تستوعب الحقيقة. فالحقيقة أكبر اتساعاً، وأكثر عمقاً وأشد تعقيداً وتعميقاً من مدارك فرد واحد أو هيئة واحدة. فالقصور البشري يحول دون ذلك، وغلبة الذاتية على الفرد الواحد أو النظرة الواحدة تجعلها لا ترى إلا بعداً واحداً من أبعاد الحقيقة وتؤثر على أحكامها، وتجعلها بعيدة عن الموضوعية. ويمكن بالطبع لفرد أو هيئة أن تمسك بشعبة من الحقيقة، أما أنه، أو أنها تستطيع الإحاطة بالحقيقة فهذا ما لا يمكن. وما يعني أن لم يعد للآخرين فكر أو رأي أو مجال، وهو اختزال لمجتمع ينقض الطبائع



الاجتماعية ولا يعنى - فى النهاية - إلا فرض ديكتاتورية عشوية تقوم على الظلم وتنتهى بالفشل .

ومن الطبيعى أن تستتبع هذه التعددية وجود الاختلاف وقبوله لا على أساس أنه ضرورة سيئة ولكن على أساس أنه جزء لا يتجزء من بيئة وكيان المجتمع، لا يمكن أن يقوم بدونه. ولما كانت تلك النقطة قد تبدو جديدة على الكثيرين ممن تتفوقوا ثقافة إسلامية تقليدية واحدية، فقد رأينا أن نبسط القول فيها فى النبذة التالية .

### قضية الاختلاف والائتلاف فى المجتمع الإسلامى :

الائتلاف والاختلاف هما قوام كل مجتمع، بما فى ذلك المجتمع الإسلامى.. فالمجتمع كالنسيج الذى يكتسب تماسكه وقوته من تلاقى للحمى بالسدى. ومن تقابل الخطوط العرضية بالخطوط الطولية. والحقيقة أن الائتلاف والاختلاف لا يقتصر على المجتمع، فهما موجودان فى الكون كما أنهما موجودان فى الفرد، وداخل كل واحد منا تدور معارك وتحدث حروب لا يراها أحد ولا يحس بها صاحبها ما بين كرات الدم البيضاء والميكروب الذى يغزو الجسم ويصيبه بالأمراض، وهناك عمليات تتم فى جزء من ثانوية غاية فى الدقة والتعقيد الكيمائى والكهربائى لتحويل الهواء إلى دماء وفرز الطعام وهضم ما يريده الجسم وطرد الزائد عنه الخ.. فالفرد الإنسانى كائن معقد، متعدد وأن كان هذا يتم فى إطار الكيان الفردى للفرد ولو عسدت الخلايا التى تعمل داخله كما لو كانت جنودا لأشبهت جيشا جرارا يضم الملايين .

فإذا كان هو شأن الفرد، فإن هذا الفرد ما أن ينشئ أسرة حتى تتضخم المسئوليات، وتتعدد الائتلافات والاختلافات ما بين شخصه، وشخص زوجته، فإذا جاء الأبناء أضيف عامل جديد... وهذا كله بالنسبة



لأصغر دائرة من دوائر المجتمع وهي الأسرة.. ولنا أن نتصور حجم  
الاختلافات والاختلافات في الوطن الذي يضم ملايين للعائلات والأسر ..

من هنا فإن التسليم بالاختلاف والاختلاف في المجتمع، والالتزام  
بآدابه هو الضمان لأن لا يتحول الاختلاف الذي هو جوهر التعددية إلى  
خلاف هو جوهر الأحادية.. فالاختلاف يحتمل للرأي الآخر.. ولكن الخلاف  
يضيق بالرأي الآخر، وبالتالي يسد المنافذ والطرق أمام التعددية لينتهي إلى  
سيادة الرأي الواحد.. ونعتقد أن هذا من أكبر المخاطر التي تتعرض لها  
التعددية في المجتمعات الإسلامية لأنها عادة حديثة عهد بالحريية. والكثير  
منها يؤمن بالإسلام قولاً واحداً وأن الحق هو ما يراه هو، والآخر نوع من  
الضلال. فإذا لم يلتزم الجميع بآداب الاختلاف ويؤمنوا أن الاختلاف في  
الفكر لا يثير حفيظة ولا يقتضي عدوة بل إنه أمر مطلوب لأن الحقيقة  
أعظم من أن يستوعبها رأي واحد. وأن كان كل واحد يمكن أن يمسك بشعبه  
منها، وأن هذا لا يثير عدوة، ولا يبعث على التنديد بالآخرين، وأن الفكر  
والمجتمع هو غير الحساب والرياضة لا يعنى الاختلاف فيه الخطأ  
والصواب بالمعنى الرياضي، وإنما هو النظر إلى بعد من أبعاد الحقيقة لم  
ينظر إليه الطرف الآخر أو التركيز على جانب لم يعطه الفريق الآخر حقه،  
وهذا لا يعنى أن يتضارب فريق مع الآخر أو يتناقض معه ولكنه يكمله .

إن الذين يرون - كالمودودي - أن المجتمع الإسلامي الأمثل هو  
المجتمع الذي لا يوجد فيه إلا إمام واحد، وفكر واحد وحزب واحد يقسبون  
اتباعهم إلى نفق مظلم، ويؤخذون بفكر نظري يناقض طبيعة الأشياء ولو  
قدر لهم الانتصار لجنوا على بلادهم أعظم الجنايات، وهم يحسبون أنهم  
يحسنون صنعا .

وهؤلاء لا يختلفون في شيء عن جماعة أخرى تقيم مجتمعا أحاديا  
لأن حديثا الله أعلم به يقطع بأن فرقة واحدة هي الناجية من الفرق السبعين  
التي ستختلف عليها الأمة ...



وما على هذا تبني النظم وتستخلص الأحكام ..

\*\*\*

ويعطى ما جاء في القرآن الكريم تحت مادة "اختلف" دلالات ثمينة تناقض الانطباع السائد، لأنها ترى أن الاختلاف ظاهرة طبيعية يقوم عليها الكون والمجتمع والفرد. فليس مر السنين إلا نتيجة لاختلاف الليل عن النهار ورأى القرآن في هذا الاختلاف آية تثير الفكر (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب). وهو معنى مكرر في عديد من الآيات كما تتمايز العناصر والشعوب (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم). ورأى في اختلاف الألوان جمالا في الطبيعة، والثمرات والجبال، وجعل للناس شعوبا وقبائل لتعارفوا

ورأى القرآن الكريم أن الاختلاف في المجتمع هو أمر لا مخلص عنه، وأن الاتفاق أمر مستبعد، أن لم يكن مستحيلا، وأن محاولة فوضى رأى معين على الآخرين يثير العناد ويدفع للتمسك بالرأى الآخر ويصيب العلاقة بسم العداوة.. ولهذا فإنه أحال البت في هذا الاختلاف إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة. وهو ما يغنى الفرقاء عن الصراع والكفاح والعمل بكل وسيلة لحمل الآخرين على التسليم لهم .

وكان هذا هو الحل الأمثل فما دام الاختلاف قائما وما دام المطلوب هو أن لا يثير هذا الاختلاف العداوة والبغضاء والنزاع والخصام، فلا مفر من إيكال الأمر إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة .

ومراجعة مادة "اختلفوا" في القرآن توضح ذلك كما يلي ..

□ (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون). (٥٥ آل عمران)

□ (إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

{٤٨ المائدة}



- «ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» .  
{الأعمال ١٦٤}
  - «الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون» . {الحج ٦٩}
  - «قال قد جئناكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه» .  
{الزخرف ٦٣}
  - «فإن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» . {البقرة ١١٣}
  - «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون» .  
{يونس ١٩}
  - «إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .  
{يونس ٩٣}
  - «ليبين لهم الذي يختلفون فيه .. ..» . {النحل ٣٩}
  - «وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .  
{النحل ١٢٤}
  - «ومهما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذالكم ربي عليه توكلت وإليه أنيب» . {الشورى ١٠}
  - «إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .  
{السجدة ٢٥}
  - «إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون .. ..» . {الزمر ٣}
  - «أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون» . {الزمر ٤٦}
- وثمة لفظة هامة أشار إليها القرآن أكثر من مرة بالنسبة للاختلاف، تلك هي أن هيمنة البغي هي التي تجعل الاختلاف أمرا سيئا ..



□ «وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم»

{البقرة ٢١٣}

□ «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا

بينهم» . {١٩ آل عمران}

وأقرب المعانى إلى ما أراده القرآن الكريم بتعبير 'بغيا بينهم' هو السلطة التى هى بطبيعتها مفسدة ويغلب دائما أن تغرس بذرة البغى، وبدون هذا لا يحتكم الاختلاف أو يتحول إلى عدوة، والتاريخ السياسى فى المجتمع الإسلامى شاهد على هذا. فأفضلية الإمام على كرم الله وجهه على أبى بكر أو عمر كان يمكن أن تكون اجتهادا نظريا صائبا، أو خاطئا. ولكن عندما أصبح له مضمون سياسى وسلطوى تسبب فى انشقاق الأمة. كما أن فكرة خلق القرآن كان يمكن أن تعد حلقة فلسفية لو ترف فكرى. ولكن عندما آمن بها الحاكم واتخذها مذهباً مقسرا فى الدولة أنتهى باضطهاد المخالفين وجلد الإمام للجليل أحمد بن حنبل .

فإذا كان القرآن قد أقر الاختلاف، ووكّل للفصل فيه إلى الله تعالى يوم القيامة، فإن السنة أيضا أقرت الاختلاف عندما ارتأى الرسول أن للمجتهد المصيب حسنتين (لو أجرين)، والمخطأ حسنة (لو أجر) فكتاب المجتهد الذى يخطئه التوفيق، فإذا كانت حسنة التوفيق قد أخطأته، فإن حسنة الاجتهاد لم تفته. وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الاعتراف بالتعددية وبحرية الفكر لأنه يجاوز إطار الإقرار إلى درجة التشجيع. كما أن الرسول أقر الاختلاف فى جانب هام له قداسته الخاصة وهو قراءات القرآن. فقد صعب على بعض قبائل العرب النطق بلمغة قريش فى بعض الآيات ونطقوها بطريقة مختلفة فأجاز الرسول لهم ذلك ما دام التغيير مقصورا على طريقة النطق بالكلمة دون مساس بمعناها، وأن التطور ميسر على هذه الاختلافات الآتية، وكان هذا هو الأصل فى تعدد القراءات القرآنية .



ومعلوم جيدا أن الصحابة كانوا يختلفون في فتاويهم، وأن هذا لم يؤثر أبدا على مشاعر المودة والتقدير المتبادلة. وورث التابعون هذه الصفة عن الصحابة، كما ورثها تابعوا التابعين.. ولم يثر الاختلاف عداوة إلا عندما أرتبط - فيما بعد - بالسلطة .

ولم يجد الصحابة والتابعون حرجا في اختلافهم، وكانت وشائج التقدير والحب تربط بين الذين جمعهم وقت واحد مثل مالك والشافعي والليث ومحمد بن الحسن النخعي.. وكان بعضهم يأخذ في - بعض المناسبات - ببعض ما ذهب إليه الآخرون وكانوا جميعا ينهون الناس عن أن يقلدوهم ويأمرؤنهم بأنعام النظر والتدبر .

وقال للقاسم بن محمد - أحد أئمة المدينة السبعة - "لقد نفع الله باختلاف أصحاب محمد ﷺ في أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة" وقال عمر بن عبد العزيز "ما يسرنى أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فمخالفهم ضال، وإذا اختلفوا فساخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة" .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة للاختلافات ما بين الأئمة، ونماذج ربودهم مثل :

١. الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم .
٢. الرد على أبي حنيفة لأبي بكر بن أبي شيبة ضمن كتابه المصنف .
٣. الرد على محمد بن الحسن الشيباني للإمام الشافعي .
٤. بيان خطأ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه لأبسي محمد بن أبي حاتم الرازي .



٥. كشف الأوهام التي في كتاب "المدخل إلى الصحيح" الذي صنّفه الحاكم النيسابوري لعبد الغنى الأزدي .

٦. بيان الوهم والإبهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشيبلي لأبن القطان .

٧. إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث لأبن قتيبة الدينوري .

٨. ما دار بين الليث بن سعد إلى مالك بن أنس من مكاتبات تكشف عن الأدب الجم والتقدير المتبادل .

وهذا قليل من كثير ..

ومعروف أن الإمام مالك بن أنس رفض أن يكون كتاب "الموطأ" هو المرجع الوحيد في الأحكام عندما أراد ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور. كما أنه (أي الخليفة المنصور) رفض ما اقترحه ابن المقفع في رسالة الصحابة تقنين الفقه أو الأخذ بإحدى وجهات النظر الفقهية. وقد حاول عمر بن عبد العزيز شيئاً من هذا من قبل، وكان ذلك في أصل فكرته عن تدوين السنن، ولكن الطبيعة التعددية المنفتحة للمجتمع الإسلامي حقبة النهضة والفتوة والثقة في النفس كانت أقوى من أن تستسلم للقيود أو الضوابط، وظل الاجتهاد سارياً حتى أدى إلى نوع من البلبلة في الأحكام في البلد الواحد. في الوقت الواحد. وكان المفروض أن يوجد نوع من التنظيم وإطار من الضوابط - لأن الضوابط مما لا مناص عنها في أي عمل اجتماعي - ولكن فتوه للمجتمع الإسلامي وقتئذ استعصت على ذلك، وكان الحل للمؤسف فيما بعد هو إغلاق باب الاجتهاد والاقتصار على المذاهب التي أثبتت رسوخها، ويلحظ أنه حتى في هذه الحالة فإن التحديد لم يأخذ شكل الواحدية ولكن بالإضافة إلى المذاهب الأربعة، فإنه ضم للمذاهب الأخرى كالأثنى عشرية



فى إيران والزبدفة فى اللفمن والاباضفة الفف يؤمن بها للبعض فى عمان.  
كما أن مذهب الطبرى ودلود الظاهرى (ومعه ابن حزم) أى الظاهرىة .

• • •

بالإضافة إلى هذه الضرورىة الأصولفة للاختلاف فى المجتمع، فقد  
كان هناك عاملان أدفا إلى التعددفة فى مجتمع إسلامى هما هدافة الأنبفاء،  
وغوافة الشفاطفن ..

#### أ. هدافة الأنبفاء :

إنه لمن الطبىعى فى مجتمع يؤمن بدين ما، أن يكون الدين هو أكبر  
عامل فىه. فهدافة الأنبفاء هى محور هذا المجتمع. وهذه الهدافة لا  
تاخذ شكل للواحدفة فى المجتمع، ولكن التعددفة، كما أثبتنا ذلك فى  
الفصول السابقة عن إشاراف القرآن إلى التعددفة وعن قبوله لتعددفة  
الأديان، وأن داخل إطار المجتمع الإسلامى تتعدد الاجتهادات  
وتتباين الآراء وتظهر المذاهب، وإن كانت هذه التعددفة تلى فى  
النهافة إلى إطار فصيح وإلى أصل مكن هو الإسلام ونحن فى غنى  
عن أن نكرره هنا، لأن المقصود هو الإشارة إليه، كعامل بارز من  
عوامل التعددفة أما شرحه وتبناؤه والبرهنة عليه فهذا ما تضمنته  
الفصول السابقة .

#### ب. غوافة الشفاطفن ..

العامل الثانى الذى يؤدى إلى تعددفة تختلف عن التعددفة السابقة فى  
إنها قد تشط حتى تجاوز إطار السمف الإسلامى هو غوافة للشفاطفن

فقد خلق الله تعالى الإنسان من "طين" لىتلاءم مع تربة الأرض التى  
سبعش عليها وضرورتها للمازمة ونفث فىه من روحه لىمكنه - إذا أراد -



من السمو إلى سماوات القيم ووجهه عقلاً يميز به ما بين الخطأ والصواب  
وقلباً يهديه إلى الخير دون الشر. ولكن الله تعالى العليم بالإنسان وما  
توسوس به نفسه - رأى أن هذا كله لا يعصم الإنسان من الانحراف لو  
ليثار اللهو واللذة والمتعة على العمل والقصد والاعتدال. دعم الإنسان بهدية  
الأنبياء الذين عرفوه المعرفة للحقة - على الله تعالى، وعلى ما يحدث  
للإنسان بعد الموت وهو ما يعجز العقل عن الوصول إليه ..

واقترضت إرادة الله وحكمته البالغة أن يكون هناك محك للإيمان،  
ولمدى عمقه أو سطحيته في نفوس الناس، فمن أسهل الأشياء الإدعاء أو  
التظاهر. ولذلك جعل الله تعالى "العمل" مصداقاً للإيمان فالإيمان دون عمل  
يظل ادعاءً حتى يثبت - أو ينفيه - العمل ..

ولكن هذا العمل يحتاج بدوره إلى محك يكفل دوائمه ويثبت صموده  
أمام الشهوات وما تهوى الأنفس .

أن الملائكة لا تتعرض للإغواء، وإيمان هؤلاء الملائكة لاشك فيه.  
كما أن عملهم هو التسبيح والتهليل وكان يمكن أن يكونوا أفضل من البشر،  
ولكن الله تعالى أراد للمجتمع البشري أن يكون شبيهاً آخر غير مجتمع  
للملائكة، أراد له أن يتعرض للإغواء - كبقوى ما يكون الإغواء - ثم  
ينتصر على هذا الإغواء بفضل الإيمان وبهذا الانتصار فضل للبشر على  
للملائكة الذين لا يتعرضون لأي إغواء ..

وقد أشار القرآن إلى هذه القوة الفعالة في المجتمع البشري بما قرأه  
للمجتمع الإسلامي" في عديد من الآيات بصورة صريحة، وجازمة ووصلت  
إلى الدرجة التي يمكن أن يقال فيها إن الله تعالى أعطى للشيطان "كلمات  
بلائش" كما يقولون أو حتى أمره بها، وزاد له من السلطة ليقوم بدوره في  
غواية الإنسان وأن هذه السلطة التي تضم المجالات العديدة لتسي نكرها



القرآن متبقى وستستمر إلى يوم الساعة، وكان القرآن يريد أن يقول إنها عنصر دائم وبق، ولا يمكن للمجتمع البشرى أن يتحرر منه إلى يوم الساعة

### ولقرا مثلاً ..

□ «ولقد خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين» . {١١ الأعراف}

□ «قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» . {١٢ الأعراف}

□ «قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين» . {١٣ الأعراف}

□ «قال أنظرني إلى يوم يبعثون» . {١٤ الأعراف}

□ «قال إنك من المنظرين» . {١٥ الأعراف}

□ «قال فيما أغويته لأفعلن لهم صراطك المستقيم» . {١٦ الأعراف}

□ «ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين» . {١٧ الأعراف}

□ «قال أخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» . {١٨ الأعراف}

□ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» . {٦١ الإسراء}

□ «قال أرايتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكّن ذريته إلا قليلاً» . {٦٢ الإسراء}

□ «قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً» . {٦٣ الإسراء}

{٦٣ الإسراء}



□ «واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» .

{الإسراء ٦٤}

□ «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا» . {الإسراء ٦٥}

لقد كانت قضية "الشر" ووجوده في المجتمع من المسائل التي شغلت الفكر الديني من أقدم العصور حتى لقد قامت أدیان على أساس وجود إلهين إله للخير، وإله للشر أو إله للنور، وآخر للظلام، وهذا أكبر دليل على قصور الفهم البشري عندما يتصدى لقضية الألوهية فهو يجعلها نوعاً من السجال بين قوتين لن يسفر بالطبع إلا عن صراع. في حين أن الفرض الذي قدمه الإسلام هو الحل الأمثل فقد أبرز الشيطان - ما بين الحقيقة المادية والمجاز النظرى - كرمز للشر الذي يتأتى بالدرجة الأولى من الاستعلاء والاثرة والأنانية وغلبة الذات عندما رفض السجود لآدم بحجة أنه خير منه «خلقته من نار وخلقته من طين» وأن هذه الطبيعة فيه قد دفعت له لإغواء آدم، ومن ثم فإن الله تعالى ترك له هذه المهمة التي خلق لها لو التي اختارها، ولم يخش على المؤمنين لأن هداية الأنبياء تحصنهم من هذه الغواية، وفي الوقت نفسه فإن هذه الغواية، وما مستأخذه من صور وممارسات تثير في نفوس الصادقين قوة المقاومة فيزدادوا إيماناً، أما من هم دونهم فأمامهم درجات عديدة من السلوك التي يخطئون فيها عملاً حسناً بعمل سيئ، وقد لا تقوتهم التوبة بعد الذنب، فإذا استسلموا تماماً لو حتى تمادوا فإنهم يكونون مثلاً مروعا يردع المؤمنين من أن يتربوا فيه. ولم يكن هناك مناص من هذا كله. لأن الشر على سواه كان لازماً لكي تبرز خصيصة الخير، فبضدها تتبين الأشياء كما فطن إلى ذلك الشاعر، ومن هنا كان لابد من وجود الشيطان، ولابد من أن يقوم بدوره الرجيم، ما دام الله تعالى قد أراد للحياة الإنسانية أن تكون دلو لبتلاء واختبار وأن يقوم المجتمع



على أساس الحرية والاختيار، ولهذا يكون أقل نقاء من مجتمع الملائكة. الأمر الذى جعل الملائكة تعجز عن فهم حكمة استخلاف الله لهذا المخلوق، ولكن الله تعالى يعلم ما لا يعلمون .

وأوضحت آيات عديدة أن لا أحد يفلت من غواية الشيطان حتى الأنبياء أنفسهم، بل لقد بدأت الحياة الدنيا نتيجة لغواية الشيطان الأولى لآدم ثم تواصلت هذه الغواية مع ظهور الأنبياء فقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىلقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ {٥٢ الحج} ..

وتحدث القرآن عن أخطاء للأنبياء فى غير ما كلفوا بتبليغه فقال عن آدم ﴿ففسى ولم نجد له عزما﴾ وعن سليمان ﴿ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا﴾ وقال عن يوسف ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ وروى عن موسى ﴿قتلت نفسا فتجنيك من العم وفتناك فتونا﴾ وقال عن ذى النون ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا لربه ظن أن لن نقدر عليه﴾ وقال عن محمد ﷺ ﴿ووضعنا عنك وزرك الذى لنقض ظهرك﴾ ﴿وان كانوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لنفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إئن لألقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾<sup>(١)</sup>. {٧٣ - ٧٤ الإسراء} ..

ولم ينف الأنبياء أنفسهم ذلك فكلهم مثل يوسف ﴿والا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ولكن من الجاهلين﴾ فالأنبياء جميعا محفوفون برعاية الله وهذه الرعاية تجعلهم ينتصرون على الشياطين، ولكنهم بدونها يصبحون كبقية البشر. وقد قال النبي إن الشيطان يسرى من الإنسان مسرى الدم، وقال إن لكل واحد شيطان فلما سأله "حتى أنت يا رسول الله" أجاب

(١) لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات. لكن ظاهرا الكلمات والسياق بأبهاها. وليس الأنبياء بعد معصومين لولا رحمة الله لهم وفضله عليهم .



بالإيجاب ولكن الله تعالى نصره عليه - فلا يتصور، والأمر هكذا أن يخلو مجتمع بشرى - إسلامى أو غير إسلامى من غواية الشيطان لأنه فى النهاية مجتمع بشرى وليس مجتمع ملائكة (١)

بل لو أخذنا بالقياس فإن أعظم ما يفترض أن يقوم به الشياطين يكون فى مجتمع إسلامى، لأن مهمة الشياطين هى فتنه المؤمنين .

وأبرزت الآيات المجالات التى يمكن للشيطان أن يؤتى الإنسان منها وهى المال، والنساء، بالإضافة إلى السلطة التى تعود بذرتها إلى الأتنية والكبرياء، والاستعلاء، والزهو، وحس السيطرة الذى يتجلى عادة فى مجال الحكم، ويفسده .

وطبقا لهذا لا يكون مستغربا أن تظهر صور عديدة لممارسات خضعت للشيطان فى مختلف الحالات. فظهر الاستبداد فى السياسة، والتفارق فى الثروات ما بين الذين يتضورون جوعا والذين ينتفخون ثراء، ويلوث النفاق والكذب الأقوال والأفعال وتظهر "الكاسيات العاريات" ليس فحسب على الشواطئ، ولكن فى شوارع المدينة، وتنتشر نور السينما، والمسارح، والملاهى، وتروج الصحافة الصفراء، وروايات الجنس والغرام الخ ..

ولا يتصور مجتمع بشرى لم يمارس فيه الشيطان مهمته فى هذه المجالات، ونرى شواهد لها فى كل المجتمعات، والفرق بين المجتمع

---

(٢) لقد تار التساؤل عن مصير الشيطان فى اليوم الآخر، فهو فى نفسه للناس وإشاعته المنكرات إنما كان يعمل برخصة من الله، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشا عندما رفض إطاعة الأمر بالسجود، ولكنه ما كان يمكن أن يعصى الله عارقا إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما نصح دائما بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذى لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل الله تعالى أعطانا إشارة عندما خلقه من نار، وعندما ما يتذف به فى النهاية فى النار ليسوب وينتهى .. من النار بدأ، وإلى النار يعود ..



الإسلامي وبقية المجتمعات للبشرية أن المجتمع الإسلامي لديه من القوى  
الإيمانية والخيرة ما يحد من مدى فجور وانتشار هذه الموبقات وأن يصمد  
بدرجات متفاوتة أمام هذه المهالك والمغريات .

وكان من نكاء الشيطان أن أخفى عن المسلمين القدامى والمحدثين  
أهمية ومنزلة الحكم، والآثار المدوية لإفساده بحيث لم تكن محل ملاحظة  
وتعقب المصلحين، قدر ما ضخم من أهمية آثار الاقتتان بالمرأة، وضرورة  
العمل بكل الطرق للحيلولة ما بين المجتمع الإسلامي وهذا البلاء المستطير .

وكان هذا الموقف هو الذي سمح لمعاوية بأن يحول الخلافة الراشدة  
إلى ملك عضوض، مع حرص المجتمع على الوقوف من المرأة موقفا ظن  
أنه الموقف الإسلامي وكان هذا دليلا لا يدحض على غفلة المجتمع  
الإسلامي وتخلف تقديره، واختلال الموازين في وقت مبكر جدا، ولأسباب  
عديدة لا يتسع المجال لتفصيلها، ليقضى الله أمرا كان مفعولا وتحقق نبوءة  
الرسول عن تحال عرى الإسلام عروة عروة "فأولها الحكم وآخرها الصلاة"

ونحن لا ندين الأسلاف فقد كان هناك أسباب عديدة أدت إلى هذا  
الموقف ولكن ما نرى أنه يستحق اللوم هو موقف الفقهاء المعاصرين الذين  
كان عليهم أن يروا ما دق على أسلافهم، أو أن يتحرروا من قوى الرواسب  
التي تحكمت في الأسلاف .

فما قيمة الضرر الذي تحدثه امرأة ترقص وهي ترتدى زيا يكشف  
أكثر مما يحجب أمام قرارات حاكم مطلق يذل ويتحكم في معارضيه. على  
الأقل إن إساءة المرأة إن تلحق إلا بأفراد جاعوا بمحض إرادتهم، بل دفعوا  
أجرا للدخول لكي يشاهدوا هذه المنكرات ..

وما قيمة مسرح أو مرقص يصخب رواده ويرقصون أو يشاهدون  
أفلاما جنسية إزاء وضع يقضي باستغلال العمال وتشغيلهم ساعات طويلة



تتهك صحتهم لقاء أجور هزيلة لا تفي بحاجة الأفواه الجائعة، أو يستخدم وسائل الاحتكار والغش لمضاعفة أرباحه .

إن مجرد وجود المشاهد التي تثير الأغراء يختلف عن الوجوب الذي يتضمنه أي قرار سياسي فوجود مشاهد الفتنة والأغراء لا يقوى وحده على جذب المشاهد، لأن عددا كبيرا من العوامل قد يحول دون تلك من صلابة، أو مشغولية، أو خوف الخ.. ولكن قرارا سياسيا يصدره الحاكم يطبق فوراً وعلى جميع من ينطبق عليهم هذا القرار، حتى لو كانوا كل المواطنين، وقد يجعل الأغنياء أكثر غنى، والفقراء أكثر فقراً وقد يشل الحريات ويفرض الخوف والرعب والإرهاب على الناس ويمتهن الكرامات ويقهر النفوس، كما يحدث في معظم نظم الحكم في الدول الإسلامية قديماً وحديثاً .

إن الرسول عندما رأى أعراباً في أسمال "أحمر" وجهه كأنما قسى في وجهه حب الرمان" لأن مشاهدة هذه الأسمال يثير الخجل، ولم يستعد الرضا إلا بعد أن خطب وانهالت عليهم الملابس من كل حذب وصوب ولكن الإسلاميين المحدثين لا يستشعرون خجلاً أمام مظاهر الفاقة المدقعة.. وإنما يحسونه أمام امرأة عارية ..

وهكذا فإن غواية الشياطين لا بد وأن توجد في المجتمع الإسلامي صوراً من التعدديات والممارسات المخالفة والنايبة عن أدب الإسلام سواء كان في شهوات الجنس أو دعوات الثراء والاستزادة من المال. أو للنظم التي تسخر للجماهير لخدمة الحاكم وتفرض حكم القوة.. ويفترض أن يكون لدى المسلم الكياسة واللفظة للتمييز بينها على أساس خطورتها على المجتمع وأثرها للوبيلة وأن يمنح الأولوية لكل ما يمس الحكم، ويتلوه ذلك ممارسات الإثراء والتكاثر وأخيراً فتنة المرأة والجنس، وله بالطبع حق مقاومتها جميعاً بكل الطرق، أو التحصن من الوقوع في شراكها وقد يجد فيها ما يستثير فيه التمسك بدعوته والحرص عليها.. وعليه في الحالات التي يعجز فيها عن



ضبط نفسه ويتغلب عليه الضعف. أن يستترك هذا بالتوبة والاستغفار والقيام بالأعمال الصالحة التي تجب السيئات .

وهذا الأسلوب يختلف جذريا عن أسلوب الفقهاء في سد باب الذريعة ومحاولة حماية الفرد للمسلم في "صوبا" تبعده عن المغريات، وقد عالجت تلك النقطة في كتابات عديدة ولوضحنا أفضلية الأسلوب القرآني وحيويته وفعالية على أسلوب سد الذريعة ..

\* \* \*

وقد يقول قائل ما هي الحكمة التي أرادها الله تعالى من هذه "التمثيلية" فنقول هل هناك أروع وأعظم من إيجاد هذا المجتمع الإنساني العظيم الذي يضم المليارات كل واحد له شخصيته المنفردة، وله اهتماماته الخاصة، وكل هذه الصور الرائعة، المتوهجة، من نشاط الناس في أربعة أركان الأرض وأنشطتهم من صناعة وزراعة وفنون وآداب واكتشافات واختراعات ؟ أن المصور الذي يرسم أو النحات الذي ينحت مائة شخص مثلا كل واحد مختلف عن الآخر يعد عبثيا فما بالك بالذي يخلق بالفعل الملايين بل البلايين ويعطيها القوة والحياة والعقل والذكاء والعواطف والشهوات، والشخصية الخاصة. هل هناك أروع مما وصل إليه المجتمع أو أعظم من صور الجمال الذي توصلت إليه الفنون أو أدق وأعجب من أسرار الصناعة والإدارة والتنظيم التي تسير عجلة هذا المجتمع في نعومة ويسر .

لقد أسلم الله تعالى هذه الأرض للإنسان فأضاف إلى جمالها السبى الطبيعي جمالا حضاريا أضاء كل جنباتها بالنور وغرس في تربتها الزهور وأقام على أرضها ناطحات السحاب والمصانع التي تصنع الطائرات والسيارات وأجهزة التلفاز والصواريخ التي تنطلق محررة لأول مرة من إمار الجاذبية الأرضية وتصل لأول مرة إلى كواكب أخرى غير الأرض.



وأقام الجامعات ومعاهد الأبحاث والمستشفيات ودور الفنون على اختلافها من موسيقى أو تمثيل أو سينما.. وهناك الملايين والملايين من البيوت ففى كل منها أسرة تستمتع بالدفء والحب والسعادة، وإذا كان هذا ليس حظ كل البشرية، وإنما هو مقصور على الدول المتقدمة، فليس هناك ما يقف أمام بقية الدول للوصول إلى هذه الدرجة كما قد يكون لدى هذه الدول من دين أو فكر أو قيم ما تفقده الدول المتقدمة ..

وعندما يجاوز التطور البشرى حده، ويبلغ غايته بحيث يظن الإنسان أنه أصبح سيد الكون عندئذ يؤذن الله تعالى بنهايته لأنه جاوز طوره وقدره، ومن رحمة الله أن هذه النهاية لا تعنى الفناء والعدم وإنما هى مقدمة لعالم آخر يختلف اختلافا تاما عن عالم الحياة الدنيا عالم تتجلى فيه قدرة الله التى لا يحدها حد ولا يشوبها نقص .

فكيف لا يكون فى هذا كله من بدا الخلق حتى أعانته حكمة وغثية وروعة تأخذ بالألباب .



## الفصل السادس

### آليات ضبط التعددية

قد يبدو أن التعددية ليست في حاجة إلى آليات لضبطها لأن طبيعة التعددية تسمح بكل التوجيهات والتيارات، وبهذا يمكن لكل ناقد أن ينتقد ولكل مصلح أن يصلح، فهي كالحرية تصلح أخطاءها وشططها بنفسها ولكن التجربة تعلمنا أن الآليات الطبيعية تتعرض لعوامل ذاتية عديدة تحولها عن غايتها أو توهنها، وما النقص في الرأسمالية - وهي تطبيق الحرية في الاقتصاد - إلا أنها اعتمدت كلية على آليات السوق وقوانينه كالعرض والطلب والمنافسة وغيرها التي ظهر أنها غير كافية .

كما دفعت الديمقراطية غالبا ثمن افتقاد الضوابط إذ نشأت بين أعطافها الدعوات الشمولية التي أودت بها ولم تنفعها انفتاح تعدديتها أو انفساح حديثها، لأن عملية الهدم أسهل من عملية البناء ولأن استهواء العواطف والشهوات أكثر تأثيرا من استهداء العقل واستلهاهم الحكمة. وتعلمنا المباريات الرياضية ضرورة وجود "قواعد اللعبة" التي تحول دون انحراف اللاعبين، كما نجد لكل لعبة حكمها الذي يطبق هذه القواعد ويؤخذ كل من ينحرف عنها ولم يقل أحد إن قواعد اللعبة ووجود الحكم يضيقان من الحرية أو يعرقلان اللعبة. فالكمل يجمع عليها دون استثناءات ذلك أن وجود قواعد



اللعبة واحترامها هو وحده الذى يكفل مضى اللعبة واستمرارها ونجاحها ويحول نون تعثرها والانحرافها .

من هنا فإن من المهم التثبت من وجود آليات لضبط المعالجات لا تعد حجراً على التعددية، ولكن تنظيمها لها حتى لا تسهر التعددية نفسها بنفسها أو ينتهى الأمر فيها إلى مجرد عرض الآراء، فإن الغرض من التعددية - فى النهاية - التوصل إلى أوضاع تحقق الأهداف المطلوبة ويكمل بعضها بعضاً، وبهذا يتحقق الوصول إلى الهدف وينتفىس أن تتبدد الجهود سدى أو أن تحطم بعضها بعضاً، ولكى تظل المعالجة مستمرة لضمان حسن التطبيق أو علاج ما يكشف عنه التطبيق من مأخذ .

#### توفر درجة من الوعي السليم بالإسلام ..

للتعددية فى مجتمع إسلامى طابعها الذى يميزها عن التعددية فى مجتمع غير إسلامى. لأن الخصوصية تفرض نفسها، وتعد من مقومات الشخصية العامة وليس الغرض من التعددية طمس هذه "الشخصية" الإسلامية، أو المصرية التى تعد خصوصية أخرى ولا تتعارض للخصوصية الإسلامية مع الخصوصية المصرية، فهذه الأخيرة تقدم إضافة خاصة، وهما معا لا يتعارضان مع التعددية .

وبعد توفر قدر من الوعي الرشيد بالإسلام من العوامل التى ترشيد للتعددية وتجنبها الانحراف نحو اتجاهات قد تكون سليمة موضوعياً، ولكنها غير مواتية فى مجتمع إسلامى أو مصرى أو أنها تؤدى إلى إذابة أو طمس لخصوصية تمثل إضافة وتمييزاً.. ويفترض أن يغرس الأبوان، وبصفة خاصة الأم بذرة هذا الوعي فى الأبناء. ثم تتولاه المدرسة ووسائل الإعلام بتوسيع إطاره، فما لم يفهم الإسلام فهما رشيداً مرناً متفتحاً. فقد يؤدى هذا



إلى فض التعددية، أو الضيق بها أو العمل على أن تأخذ لونا معيناً أو جسداً أقصى لا تتجاوزه مما قد يحول دون ظهور التعددية أصلاً .

وما بين الخصوصية التي لا بد وأن تكون لتعددية في مجتمع إسلامي، وما بين العمومية التي تفترضها طبيعة التعددية الحرة التي لا تعرف حدوداً أو قيوداً يوجد موطأ القدم الذي تقف عليه التعددية في مجتمع إسلامي / مصري، ويتفاعل من منطلق لا يضيق به الإسلام بل يمكن القول إنه إسلامي خالص هو حرية الفكر التي إن وصلت إلى الإطلاق في القول والكتابة فإنها عندما يراد تطبيقها لا بد وأن تصطدم بضرورات الواقع التي قد تكون من القوة بحيث تغلب من يغالبها .

ويحل الإشكال أن الإيمان ما دام صادراً من أفراد، وما دام يتبع الطريقة التي تملئها "قواعد اللعبة" أعني أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فإن درجة من الإصلاح ستتحقق وستتخلخل الصفوف العريضة للمعارضين وتتأثر الرواسب المذهبية، وستكسب الدعوة أنصهاراً ومع مر الزمن، وبمواصلة الجهود سيتمكن التوصل إلى الانتصار في النهاية .

وفي الوقت نفسه فإن حرية المعارضين في عرض وجهات نظرهم في الحفاظ والاتباع وضرورة ملاحظة اعتبارات عديدة ستحول دون انزلاق آراء الذين يريدون الإصلاح والتحرر من إفسار الماضي إلى درجة من الشطط التي لا يمكن التحكم فيها مما قد يؤدي إلى حالة من القوضى والتحلل يمكن أن تنتقل من مجال الفكر إلى مجال العمل ويكون لها نتائج سلبية سيئة على اقتصاد وأوضاع البلاد وهو أمر غير مطلوب بالطبع .

وعندما يكون التعصب وضيق الأفق مسئولاً على جماهير غفيرة - كما هو الحال للأسف في معظم الدول العربية والإسلامية - فإن عملية التعددية ستكون شاقة وقد تتحول من السجال الفكري إلى العراك البدوي أو



التهديد بالقتل وليس هناك من حل "مشفى" جاهز، وقد يكون أقرب الحلول هو إبراز توجيهات القرآن الكريم (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أوليا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون) . (٦٤ آل عمران) ..

كما يؤدي إلى تقبل التعددية التعريف بأداب الائتلاف والاختلاف في الإسلام التي أشرنا إليها في الفصل السابق واستيعابها تماما .

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أحد ضمانات التعددية لأنه ليس إلا ترخيصا بحرية الفكر وتأكيدا عليها إيجابيا وسلبا - ولو اتعسف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان من المحتمل دخول منكرات لا عداد لها دون احتجاج أو نقد ولكان من الممكن لبعضها القضاء على التعددية نفسها، ولكان من الممكن أيضا أن لا يوجد المعروف، أو أن تكون ممارسته ممارسة سيئة دون أن يوجد من يصحح السقيم ويستكمل الناقص أو تكون القاعدة في هذا المجتمع هي "أنا مالية" "أنا مالي" ..

ولكن إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن تجعل منه أداة لواء التعددية، أو الحيف عليها لا أن يكون ضمانا لها. عندما يتخذ أنصار النظرة الأحادية، وأصحاب شعار "قولوا واحدا" سلاحا يتأرا يسلطونه على كل صاحب نظرة مختلفة، وقد لا يتسبب عن هذا شر مستطير ما دام محصورا في إطار الفكر (أو اللسان) - كما يشير الحديث المشهور "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع بلسانه، فإن لم يستطع بقلبه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينتقل من إطار الفكر واللسان إلى مجال اليد والعمل لأن الحديث جعل الأولوية للتغيير باليد، وإنما جعل للسان والقلب عند عدم الاستطاعة .



لقد جاءت صياغة الحديث الذي يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة القرآن. فهذه الأخيرة تقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حين أن الحديث يتضمن تغييرا لا مجرد أمر ونهي وحدد له ثلاث مستويات هي اليد، واللسان والقلب، ولا بد لاختلاف هذه الصياغة من مبرر.

في نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد إنما يراد به حالات معينة لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد أحطنا فردا يحاول القيام بجريمة ما كأن يشعل نارا في بيت أو يضرب حيوانا بقسوة.. أو حتى يحاول الانتحار عندئذ يصبح اللواذ باليد أمرا لا مناص عنه.. أما ما يورده الفقهاء عن سلطة الفرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الابن والزوج على الزوجة، فهذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيسا بالرسول الذي ما ضارب أحدا قط، ولا خادما .

ونعتقد أن تفسير حديث "من رأى منكم منكرا.." لابد أن يستلزم الآيات العديدة التي حدد الله تعالى للرسول طريقة التبليغ، وضرورة الاتصال عليه، والحذر من أن يلجأ لرفض المشركين. أو أن يحاول اكتساب الإيمان بمختلف الطرق. فمن غير المعقول أن يتصور أحد من عامة المسلمين أو خاصتهم أنه أكثر غيرة على الإسلام من الرسول، أو أن عليه أن يفعل أكثر مما وجه القرآن رسوله ..

ونلاحظ هنا أن القرآن أكد هذا المعنى مرارا وتكرارا وأوضح للرسول ..

- «إيس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء» (٢٧٢ البقرة)
- «إنا لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي لمن يشاء» (٥٦ القصص)



▪ ﴿أَقْمِنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فِرْءَاهُ حَسَنًا فَإِنِ اللّٰهُ يَضِلَّ مِنْ يَشَاءِ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءِ فَلَا تُذْهِبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنِ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمَا تَصِفُونَ﴾

{٨ فاطر}

▪ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ {٩٩ يونس}

وحدد القرآن للرسول ما يقطعه عند إعراض من يدعوهم ..

▪ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ. أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ . {٤١ يونس}

▪ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ {١٢ هود}

▪ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ . {٤٠ الرعد}

▪ ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . {٩٤ الحجر}

▪ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ . {٨٢ النحل}

▪ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾ . {٤٥ ق}

▪ ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَىٰ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ، اتَّوَلَّوْا بِهِ بِلَهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ لَمَّا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾ .

{٥٢ - ٥٥ الذاريات}

▪ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللّٰهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ . {٦ القصص}



• (أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى) .

{ ٥ - ٧ عبس }

• (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر) . { ٢١ - ٢٢ الغاشية }

وهذه الآيات التي تقصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهداية تقرر حق الآخرين في الرفض، وأرجاء حسابهم إلى الله تعالى يوم الدين، وتوجه للرسول لأن لا يستشعر غضاضة من ذلك أو يحس ضيقا لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النفوس التي جبلها الله، وأن الإلحاح في الوعظ أو الجنب قد يوجد أثرا عكسيا. في حين أنه لو ترك وشأنه فربما بعيد التفكير فيتوب ويتوب الله عليه وقد يعمل الكثير من الحسنات ليكفر عن سيئاته ويجعل الله تعالى سيئاته حسنات.. فضلا عما يعلمه الله من غيب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرفض مستقبل في الإيمان وخدمه الإسلام، وهل هناك من كان أشد عدواة للإسلام - في فترة ما - من خالد بن الوليد وعمر بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الإعلام .

هذه كلها آفاق قد لا يلم بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهي صفة قلما تتوفر لعامة الناس، وإنما تتوفر لديهم بدلا منها الحماسة والاندفاع. فهذه الآيات ترسم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يعرف أن دوره ينتهي بمجرد الأداء باللسان أو القلب. أما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا في حالات الضرورة المحددة التي أشرنا إليها آنفا، وفي غير هذه الحالات تكون أي محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماما لسروح الآيات، ولن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر حرصا على الإسلام من الرسول الذي كلفه الله بحمل رسالة الإسلام ولن تكون عاطفته أشد وحرصه على الهداية أعظم، ومع هذا فقد وجهه القرآن ﴿وما عليك ألا يزكى...﴾ .



فهذه الآيات هي التي تفسر طريقة فهم وتطبيق حديث تغيير المنكر وهي حكمة عليه، وضابطة له لأن من أصر الأمور المتفرقة ما بين النية الموضوعية الخالصة في التغيير، وما يمتزج بها امتزاج اللحم والدم مسن مشاعر شخصية، والطباعات خاصة ورغبة في النهي والأمر والشخص والانتزاع وهي تعود إلى الزهو والغرور، وهما من الموبقات، ومحاولة تلييس المعنى الخاص الثوب العام، وهي صورة من النفاق النفسى الذى يتطرق إلى النفس بأخفى من حبيب النمل ..

ومما يلفت الانتباه أن كل الكتابات التقليدية عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر باليد انحصرت في تدمير المعاصرف وما يمت بصلة إلى الموسيقى وتحطيم أواني الخمر وإلزام النساء بالنقاب والخمار الخ.. وقد استهلكت هذه المجالات الثلاثة جهود كل الكاتبين عن هذا الموضوع من الفقهاء القدامى حتى الكتاب المعاصرين، ولم يتحرك أمر بالمعروف أو إنهاء عن المنكر لمقاومة استبداد الحكام الطغاة.. ولم يفكر أحدهم في التنديد باستغلال الأغنياء للفقراء ووجود من لا يملك قوت يومه.. ومن يوجد لديه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ولم يثر نساير على الجهالة والامية في حين أن أول كلمة في الإسلام كانت اقرأ.. وأن رسالة الإسلام كانت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه عندما أراد أن يصم العهد السابق عليه أطلق عليه "الجاهلية".

وهذه الاتجاهات بالإضافة إلى ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة عن ادعاء الغضب لله والثورة لمحارمه ودخول العمل الذاتى فى ذلك هو ما يوضح لنا أن الصورة فى أذهان "الإسلاميين" سواء القدامى والمحدثين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تختلف عما أمر به القرآن وطبقه الرسول . مما يوحى بأن ما يجاوز الأمر باللسان أو النية فى القلب إلى ممارسة تغيير باليد منسوخ بنص الآيات القرآنية، باستثناء حالات



ونرى أن هذه صورة سقيمة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كانت وليدة طبيعية للمناخ المعهودى واللفقه التقليدى (البدوى) السائد فيها .

أما الصورة المثلى فيفترض أن تختلف شكلا وموضوعا. ففي الشكل تأخذ طبيعة جماعية وليست فردية، وذلك بتكوين الجمعيات والهيئات لذلك. لأن العمل الفردى، وأن كان له أهميته التى يحرص عليها الدين ويحميه من الأهتات باعتباره ممثل الحرية الفردية الثمينه، والنسبى هى أساس كل الحريات. إلا أنه لم يعد - أى العمل للفردى - فعالا فى عالم التنظيم والتهيج.. وأما فى الموضوع أو المضمون فيجب التركيز على الأمر بالمعروف أكثر من النهى عن المنكر، ليس فحسب اتباعا للترتيب فى الآيه، ولكن أيضا لأن الإيجاب أفضل من السلب. ويغضى هذا للمضمون مجالات مثل إشاعة الثقافة والمعرفة والإمام بالمهارات المطلوبة للمجتمع وتعليم الجاهلين، وقضايا العدالة الاقتصادية والتكافل الاجتماعى الخ.. وقد يودى ظهور هذه الجمعيات وحديثها فى الدعوة إلى تكوين جمعيات معارضة، وبهذا تتحقق التعددية ويظهر الرأى والرأى الآخر ويتصارعان فى مجال الفكر ويتحقق الثراء للقضية، ويظهر فى النهاية الرأى الأفضل، حتى وأن لم ينفرد بالساحة لأن هذا يناهى طبيعة التعددية .

#### مقتضيات التعددية فى المجتمع الإسلامى :

إذا أردنا من باب التحديد تعيين ما تستتبعه التعددية فى مجتمع إسلامى لقلنا إن أول قاعدة تنبثق منها التعددية نفسها هى الحرية كمنطلق لكل خطوة فى النشاط الفردى والجماعى. وقد أوضحنا أن الإسلام - على خلاف ما يظن الناس أو يذهب إليه كثير من الدعاة - لا يتناقض مع فكرة الحرية كأصل والتعددية كمظهر وتطبيقه لها فإن توحيد الله لا يحتل تأويلا ويستتبع التعددية فى كل ما عداه، كما ذكرنا، والحرية لها ما يقابلها فى "اللغة" الدينية



وهو مبدأ البراءة الأصلية وأن الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد بتحريمه  
نص صريح من القرآن .

فضلا عما توصلنا إليه من أن الحكمة أصل من أصول الإسلام  
يجب أن يستلهم عن وضع السياسات، وهي ما يبعد التعصب وضيق الأفق  
والاقتصار على ما ورد في الكتاب لأن النص عليها وارد في الكتاب نفسه .

ونطاق الحرية في الإسلام في مجال الفكر والاعتقاد لا يحده إلا  
تحول ممارسة هذه الحرية إلى ممارسة قذف وسب أو جعلها وسيلة إبتزاز.  
لما أي حرية تقوم على منطق وتستند على حجة فلا يجوز أن يوضع عليها  
قيود، وبالنسبة للحريات الاقتصادية والسياسية فإن التحفظ الوحيد عليها هو  
العدل حتى لا تتحول الحرية إلى استعباد الجمهور أو التحكم في الشعوب .

والأخذ بالتعددية في المجتمع يستتبع وجود صور من التعددية في  
المجال السياسي كندلول السلطة وحرية المعارضة وتقييد صلاحيات الحاكم  
بإرادة الشعب الخ.. وهي تستتبع في المجال الاجتماعي ظهور منظمات  
للمجتمع المدني وهيئات الإصلاح وكل ما يرى بعض الناس أنه جدير بأن  
يعالج عبر هيئة تنظم هذه المعالجة وتعطيها طابعاً جماعياً كما يجب أن  
تكون هناك صحافة حرة تماماً باعتبارها "رسالة" فكرية بحيث لا يجوز حتى  
للمؤسسة الصحفية نفسها أن تحد من هذه الحرية أو تضع القيود عليها. كما  
يفترض أن توجد المنظمات النقابية طبقاً لما يراه العمال أنفسهم باعتبار أنها  
هيئات يؤسسونها بأنفسهم للدفاع عن حقوقهم ويدخل في هذا كافة الحريات  
النقابية التي نصت عليها الاتفاقيات الدولية .

وهناك المجال الحساس للفنون والآداب من شعر أو رواية أو قصة  
أو تمثيل أو سينما أو موسيقى أو أغان أو رقص.. فكل هذه يجب أن ينظر  
إليها باعتبارها وسيلة للتعرف على ملكات النفس الإنسانية، ومما يمكن أن  
تقدمه من عطاء وإضافة ونقد وإصلاح أو حتى إشباع لعواطف والاستمتاع



بلهو.. فهذه كلها يجب أن تكفل لها الحرية رغم ضيق كثير من الدعاة الإسلاميين الذين يرون في بعضها إشاعة للفحشاء.. وقد عالجنا هذه النقطة عندما تعرضنا لأثر غواية الشياطين التي لا مخلص منها وقد أوضحنا التجربة وطبائع الأشياء أن فرض الرقابات - كائنة ما كانت الحجة - يوجد مفسد أكثر من التي أريد تجنبها ومن ثم فلا يجوز أن يكون عليها رقابة إلا إذا وجد للرأي العام أن بعضها يمتحن لمشاعرهم، ويطلب بالتدخل

ونحن نرى أن الخطأ المثل أن يترك هذا المجال لأصحابه يتحملون مسئولياته وتقع عليهم أوزاره، كما يستحقون أمجاده، أما الدولة فلا تتدخل، سلبا ولا إيجابا وتتفرض يديها منه، وأما الفقهاء فليدبرهم مندوحة اعتباره انعكاسا للفجور الذي ألهمه الله تعالى النفس الإنسانية لو أنه حرث الدنيا ومتاع العاجلة الذي يتولى الحساب فيه الله تعالى يوم القيامة .

وفيما نرى، فإنه ما دام أصل التعددية - وهو الحرية - هو ما يتقبله الإسلام فإن التعددية ومقتضياتها لا تختلف في المجتمع الإسلامي عما هي عليه في المجتمعات الأخرى إلا في المدى والدرجة وليس في النوع أو الكيف. لأن الإيمان بالقيم الإسلامية يحول دون الجموح والشطط الذي تتصف به مقتضيات التعددية في بعض المجموعات الأوربية الحديثة.. لأن المجتمع الإسلامي، وإن كان جزء من المجتمع البشري الذي يخضع لقوانين عامة - فإنه مجتمع متميز له خصائصه التي ترتفع على الصفة العامة له. وأن لم تجرده منها ...

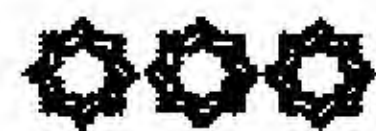


## من مكتبة الأحياء

- نحو فقه جديد
- في ثلاثة أجزاء ..
- استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن ٢١
- كما تراها دعوة الأحياء الإسلامي ..
- مطلبنا الأول هو الحرية ..
- تنوير القرآن ..

===== يصدر قريباً =====

الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة  
الكتاب الذي سيحسم قضية الحكم في الإسلام .





**ملحق**

**عن دعوة الإحياء الإسلامي**



# ملحق عن دعوة الأحياء الإسلاميين

①

## فكر وفقه دعوة الأحياء الإسلاميين

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعوة الأحياء الإسلاميين على غيرها،  
وقد آن الأوان لبسط هذه الفكرة وإقامتها على قواعدها .

فالدعوات الإسلامية قد تدخل ميدان الإصلاح بفكر سلفي فلا تجدد  
شيئاً. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء لأنهم لم  
يتصوروا أبداً أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تريد أن تعيد الساعة  
إلى الوراء، وتأبى طبائع الأشياء ذلك. ومن ثم فعلها كله مردود وليس إلا  
صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، ولما يمكن  
تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحي ولا يمكن إصلاحها على  
حدة، وقد تدخل الساحة حاملة شعاراً أخاذاً مثل "الحاكمية الإلهية" دون أن  
تعنى بدراسة المضامين العملية له والوسائل التي يمكن بها تطبيقه وإثار  
ردود للفعل الخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعارية" أن تكون أخطر وأصوأ  
الدعوات. وقد قتل أصحابها في القديم - الخوارج - بأيديهم الرجل الذي كان  
الرمز الحقيقي للحاكمية - وهو علي بن أبي طالب - وأفسحوا المجال



لمعاوية الذى جاء بالملك العضوض. وقد تعنى بالتدين الأخرى على حساب التدين الدنيوى .

### لقد ضلت هذه الدعوات .. وأضلت .

إن دعوة الإحياء شئ آخر. إنها تعود بالدرجة الأولى إلى العقل،  
بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلى النقل. وعندما أعملت العقل  
أنتهى بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكلام الإسلامى. كما  
يختلف عن الموقف الأوروبى السلبى الذى فضل أن يتجاهل أعظم قضية فى  
الوجود - قضية وجود الله - لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس،  
البدائى، الذى لا يعبر إلا عن طفولة العقل الإنسانى. فما دام الله غير  
محسوس لا يمكن أن نتأله الحواس، فلا داعى للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذين  
كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقيم، فإنهم فعلاً توصلوا إلى فكرة  
وجود الله، ولكنها كانت فكرة غائمة أثرت عليها الفلسفة المادية الغالبة على  
الفكر الأوروبى وحكمها القصور البشرى الذى يعجز عن أن يتوصل إلى  
الصورة المثلى لله، ولا بد أن يأتى بها وحى من السماء، ولما كانوا فلاسفة  
وليسوا أنبياء، فقد وقفوا فى منتصف الطريق .

وفى الوقت الذى رفض فكر الإحياء الإسلامى طريقة ومنهج علم  
الكلام، فإنه وجد طلبته فى منهج القرآن الكريم وتلقى العقل مع الوحي فى  
اعتبار أن القضية المحورية فى الإسلام (وبالطبع فى كل دين) هى الإيمان  
بالله. ومن أجل هذا جاء البند الأول من ميثاق دعوة الإحياء الإسلامى يبرز  
هذا الإيمان أولاً وقبل كل شئ. ويسبرزه بالصورة العقلانية / القرآنية.  
ويعتبره نقطة البداية وواسطة العقد فى الإيمان الإسلامى الذى يغطى الكون  
كله وليس الإنسان الذى يعيش على كوكب من أصغر كواكب الكون ..

وهذه الصورة المميزة للإيمان بالله هى ما تميز دعوة الإحياء  
الإسلامى عن بقية الدعوات كافة.. أوروبية. أو إسلامية.. وما يعطيها رشد  
الحياة وعمق الدين والتواصل مع الكون .



ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامى أنها لا تقتصر فى النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتحصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئاً عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامى تنظر إلى الدين من خارجه أيضاً <sup>(١)</sup> بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها أحاد الأشجار عن الغابة، وهى تصطبغ معارف من خارج الدين أيضاً. كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التى يمكن أن ترمز إلى الله لشبهه ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسى هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجماً تحمل أسماء الفلسفة. العلوم، الفنون، والأدب، والاجتماع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً ونظم الحكم الخ.. وهذه جميعها تنبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل - بفضل مجراه الخاص. إضافة إلى المصبب والإنسان وكل من يلم بما تأتى به هذه الأنهار ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندما يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد - فإن ما عرفه من تاريخ وحضارة ونظم الحكم وارتباطهما بالحرية سيعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المرابين للمدنيين، وكيف أن الربا كان يؤدى إلى استرقاق للمدين نفسه، فإن إيمانه بتحريم الإسلام للربا سيتأكد، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدى إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تنديد القرآن بطغيان الحكام والقراعين سيتدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن إيماناً بصيراً وليس أعمى، عميقاً وليس سطحياً. وانعدام معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف واقتصارهم فى فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما فى القرآن من قيم كالحرية والعدالة الخ.. ضحلاً وسطحياً. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرم بنى آدم، وندد بالاستغلال، ولكن هذا الكلام ليس له أى مضمون عملى لديهم، وهم أنفسهم يمتنون كرامة الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن

(١) وسندنا "الشرعى" فى هذا هو أن القرآن الكريم قرن "الحكمة" بالكتاب كأصل من أصول الدين، ومن ثم فكل استهداء سليم ورشيد خارج الكتاب لا يعد شذوذاً عما أراده القرآن لأنه استلهاهم للحكمة التى نص على عليها ..



المضمون العملى الذى هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية فى العالم بأسره، وطرق الحكم وأنماط الحضارات وحركات الجماهير الخ.. وهم يجهلون هذا كله "لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العلم الدينى".

ومن هنا اتسمت دعوة الإحياء الإسلامى بالشمول والانفتاح الذى لا يطيعه، ولا يقبله / الذين حصروا أنفسهم فى "نصوص الأسلاف".

ولم يحدث أى فارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ الخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البداية - وعلى نقىض مسلك الآخرين. عمدنا رأساً إلى القرآن الكريم. ولو أننا - أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضاً كبيراً.

إن دعوة الإحياء الإسلامى عندما انطلقت من القرآن رافضة الالتزام بكلام المفسرين ثراوت لها عظمة وروعة، وعبقريّة القرآن وتفتحت آفاقه وعطاءه الذى لا يحد، وكانت تحجبه غشاوات مجادلات التفسير. وممن ثم يمكن أن تستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامى من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن تعززها بشواهد التاريخ.

وقد وجد فقهاء دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامة الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعت المعايير الدولية لها.

\*\*\*

بعد هذا المنطلق القرآنى وجدنا أمامنا السنة، وهى مادة الفقه الإسلامى ولحمته وسداه، وإليها أكثر من القرآن - يعود بناء الفقه الإسلامى والفكر الإسلامى عامة. وإليها ينسب الفقهاء معظم أحكامهم.

ولكن دعوة الإحياء الإسلامى لم تنقاص، لو تستسلم فابدعت تخريجين حلت بهما أزمة السنة المستعصية..



التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذي أحجموا عن ممارسته) قد يستعيد ربع أو خمس ما جاء في الصحاح .

وترفض دعوة الإحياء الإسلامي كل ما يوجه إليها من ادعاء "هل خفي ذلك عن البخاري ومسلم واستكثفتموه أنتم ؟ " وهي تراه نوعاً من الفرار من المقولة إلى القائل وشكلاً من أشكال الإرهاب وتقديس الأسلاف الذي ندد به القرآن ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ .

نقول بلى، لقد تهيأ لنا من وسائل البحث والتحصيل ويفضل شيوخ الثقافة والمعرفة ما لم يتهيأ للسابقين، ومن للطبيعي أن نصل إلى ما لم يصلوا إليه، ولا يمس هذا في شيء إخلاصهم وتقديرهم وتقواهم .

التخريج الثاني: هو أن كل ما قاله أو فطه للرسول خارج الإطار القرآني إنما جاء بوحى سني، أريد به لبقاء ما بقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأييد وحى القرآن .

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامي هذه الفكرة أو تخرعها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هي :

١. أن القرآن الكريم أغفل ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للشعائر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام الخ.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن نسبياً.. (وما كان ربك نسياً).. ولا بد له من حكمة ..

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم أراد للكليات الكبرى التأييد، أما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لها التأييد ولو أراد أنكرها .



٢. لما كان من الضروري تحديد هذه التفاصيل فإن القرآن وكل تبيانها للرسول (.. لتبين للناس ما نزل إليهم) .

٣. قام الرسول بهذه المهمة لا من تلقاء نفسه، ولكن طبقا لوحى سننى يختلف فى طريقته ومقتضاه عن الوحي القرآنى الذى كان لسه طبيعة مميزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآنى بحرفيته .

٤. فى الوقت نفسه فإن الرسول نهى عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئا أن يمحوه. وهذه قضية ثابتة لا يجوز التماحك فيها. فإن التكوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على يدى عمر بن عبد العزيز .

ومندول هذه الواقعة أن الرسول نفسه لم يشأ لما أمر به من تفاصيل صفة التأيد القرآنية، وبهذا التقى مع القرآن نفسه، وهو الأمر المنتظر.. فما جاء به الوحي السننى يظل ما دامت الأوضاع تتحمله، وتتجاوب معه فإذا لم يحدث وجب العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط أحكام جديدة تتفق معه، ومع الأوضاع أيضا (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها). دون أن يكون الداعى لهذا هو الهوى أو الاختيان .

وقد صرح بعض الفقهاء ومنهم السيد رشيد رضا، أن الصحابة رفضوا أن يجعلوا الأحاديث ديننا عاما ودائما كالقرآن. وذهبت إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم .

بل إن هذا هو ما صرح به الرسول ﷺ فى الحديث عن عوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقال: "أطيعونى ما أمت فيكم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأحلوا حلاله وحرموا حرامه" وفى رواية "خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال: "أطيعونى ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذى اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض ينبئ بأن



الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجودا ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب<sup>(١)</sup> .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى للفقهاء أنه ليس تشريعا<sup>(٢)</sup> .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها - كما أشرنا إليه آنفا - تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى للفقهاء أنه ليس تشريعا .

\* \* \*

بعد القرآن والسنة - وجدت دعوة الإحياء الإسلامي - أمامها للتلال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامي تتحدى كل هذا جانبا، لأنها لا تقبل أن يفكر الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون ميتة، ولأنها تؤمن أن القرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى "ما أنزل الله" وليس إتباع الأباء والأسلاف. فهؤلاء الأسلاف رغم تقانيهم وإخلاصهم - لم يرزقوا الكمال .

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامي حرجا في أن تعلن أن الفقهاء عندما أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة للمرتد كانوا

(١) أنظر الحديث في زيادات محاسن الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للبليغي تحقيق الدكتور عائشة عبد الرحمن (دار المعارف مصر) ص ٢٨٤ - والحديث أورده الميثمي في مجمع الزوائد ١٧٠/١ وقال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

(٢) لا يتسع المجال للتفصيل وقد عولج الأمر في الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل أن يعود إليه. وكذلك في كتابنا "الأصطلح العظيمان. الكتب والسنن" .



يصدرون عن روح عصرهم، والصناعة للفقهاء التي وضعوها - ذلك لأنهم ليسوا معصومين، أما دعوى الإجماع فقد أنكرها الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا تجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تستبعد تماماً، أو أن تستأنس به في بعض الحالات وفي جميع الحالات تضع فقها الخاص .

وسنقدم هنا أمثلة توضح كيف أن هذا الفقه الجديد يحل العديد من لزمات المجتمع الإسلامي التي اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنا بين العقيدة والشريعة، وهو تمييز أشار إليه الشيخ شلتوت رحمه الله في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منتهاه، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذي قام به فقه الإحياء الإسلامي إذ وجد أن العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشريعة. فالعقيدة تتجه إلى القلب وتستهدف الإيمان وتستلهم للوحي ووسائلها قراءة القرآن وتكبره والتقرب إلى الله تعالى .

بهذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تخرج بنفسها في خضم الدولة، أو السلطة. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهاات القرآن الكريم العقيدية هي إلى الأفراد. وإذا جاوزت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلى الدولة، أو السلطات، أو حتى مثلث نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة الثيولوجية التي لا تكون دولة العقيدة<sup>(١)</sup> ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضي عليها كعقيدة .

إن هذا التكيف قد حل أكبر أزمة في مشكلة الحكم الإسلامي لأنه أبعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكما لو هو ولكن بناء على طبيعة العقيدة .

(١) والمصطلح نفسه سقيم فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن نقول أمة العقيدة .



أما الذى يدخل فى مجال الحكم فهو "الشريعة"، والشريعة هى عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمال، الحكام مع المحكومين، الأغنياء مع الفقراء، للرجال مع النساء الخ.. ففى هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل وتكون الوسيلة هى القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح للدولة الإسلامية فى أحكامها طابعاً عقلياً .

وإيمان الأفراد بالعقيدة يتفاعل تفاعلاً جدياً مع التنظيم العقلاسى للدولة. فتطبيق الدولة للشريعة نتيجة إيمان الأفراد وطلبهم يكفل لهذا التطبيق الصفة الديمقراطية، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمى العقيدة من تسلل الخرافة .

وفى قضية الفنون والآداب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء عاد بها إلى الإنسان لا إلى الإيمان واعتبرها من حرث الدنيا وثمرة النفس الإنسانية بفجورها وتقواها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنيتين – العقيدة والشريعة – تحتفظان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التى تتمثل فى الفنون والآداب، والعقيدة نفسها تنص على أن عطاء الله تعالى ليس محظوراً عن الذين يبتغون حرث الدنيا وأن حسابهم إنما يكون لله تعالى ليوم القيامة .

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد فى المجتمع الإسلامى صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها إرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطاً إسلامياً، لأنها نشاط إنسانى يعود حسابه وعقابه إلى الله يوم القيامة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون أو مشاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة أو بأمر السلطة .

أما قضية الاقتصاد ومشكلة الربا المعقدة، فإن دعوة الإحياء رأت بنظرة واحدة أن كلمة "ولا تظلمون" "بضم التاء" الأخيرة فى الآية (فإن تبتم



فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون) يتضمن اعترافا بأثر التضخم وأن تجاهله يؤدي إلى الحيف على الدائن وظلمه، والظلم كربه في الإسلام سواء كان للمدين أو الدائن، ومن ثم فليس هناك تحريم على أكثر أنواع الربا لانتشارها في عصر يجعل التضخم أمرا لازما .

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقي الحقوق والواجبات بين العمال وأصحاب الأعمال التي تحسم شائفة تناقض المصالح والصراع الطبقي وتحوله إلى اختلاف حول قسمة العائد بحسبه العدل الإسلامي. كما لم تجد صعوبة في تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيرا يوجب ويقر الاتفاقيات الجماعية أو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه في بعض الحالات وهو جوهر النقابية (١) .

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إساءة استخدام الحق" وما تتطلبه من ضبط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسي للشرعية، قدر ما عزف عن "سد الذرائع" لأنها تخالف أسلوب المقاصد الذي وضعه القرآن الكريم "إن الحسنات يذهبن السيئات" كما تستبعد توجيهاته في التوبة والندم وغفران الله الذنوب .

\*\*\*

هذا عرض سريع للطريقة التي توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامي إلى أسسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير من الشبهات وحلت الكثير من المشكلات التي أوجدتها تعقيدات الفكر السلفي والفقه التقليدي .

---

(٢) أنظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص ٨٢ إلى ص ٨٥ .



## نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

لما كانت نزعة الماضوية هي أبرز ما تنقسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، وأنها هي السمة المشتركة بينها جميعا. فقد رأينا أن نفرد لتفنيدها هذا الفصل الموجز لعله أن يشفى هذه الدعوات من دلائل الضلال، فمهما كان نبيل العاطفة التي تشد هذه الدعوات إلى الماضي المجيد، ونحو القرون الثلاثة التي ارتأت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعة يثبت أنها ليست من الإسلام، بل إنها تتناقض الإسلام .

### وتناقضها مع الإسلام يتلّى من أمرين :

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية في حين أن هذه النزعة تمثل الماضوية .

الثاني: أن الإسلام يمثل الموضوعية، وهذه النزعة تمثل الذاتية .

وقد يلى تفصيل هذا الإجمال ..

### المستقبلية والماضوية :

يغرس الفلاح البذور في الأرض ناظرا للمستقبل الذي سيجعل هذه البذرة نباتات باسقة، وهو لا يتصور أنه سيأكل منها فوراً، كما أنه عندما غرسها في الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه استهلكها لكسب



الحاضر وخسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من "التقاوى" بينما كان من الممكن لو زرع هذه التقاوى أن توجد له أطنانا من المحاصيل .

ويوفر التاجر من أرباحه فلا يتفقا على ملذاته، ولكنه يدخرها ويعيد استثمارها ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر.

الإسلام كهذا الفلاح والتاجر، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للآخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبلين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا بأسرها كقطرة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملا ودأبا وكدحا وكفاحا ومجالا لأداء الصالحات واجتناب السيئات وهذا العمل والكفاح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية" وتميز الإسلام هو أنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها قطرة للمستقبل في حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تضع مدى محددا لو أن يسخر الأب حياته لمستقبل لينائه .

فكرة العكوف على الماضي واستلهامه مخالفة تماما للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلا عن هذا كله في التغزل في هذا الماضي والإشادة به، أو تجعل للشحاذة منه عملا وحرفة، وهي في أعماقها مرض نفسى تبرر به النفس عجزها عن العمل، وسيادة السلبية عليها، والإسلام في مستقبلية لا ينظر إلى الماضي ولا يقدر القبور، أو يعلى بنيانها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمح بزيارتها فلاعتبار، وقد رأى أن التمسح بآركانها لو تصور أى قوة فيها نسوع من الشرك والماضوية في حقيقتها "قبورية" ووثنية ..

### الموضوعية والذاتية :

والجانب الثانى الذى تتناقى فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعى. أى أنه يمثل الفكر، والمبدأ، والقيم فى حين أن الماضوية تمثل



التراث، والأشخاص، والممارسات. وفي حين أطلق الإسلام على أتباعه اسم "المسلمين" أي الذين يؤمنون بالإسلام وقيمته الموضوعية فإن الماضوية جعلت أصحابها يحملون اسم "السلفية" وما السلفية إلا اتباع السلف وطرائقهم ومذاهبهم وقد رفض الإسلام هذا وسمى أتباعه للمسلمين أو للمؤمنين وبتضح مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وأن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التي تندد بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (السلفية) .

ولما كان الإسلام محكما في بنائه: كالجسد الواحد الذي يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتنافر مهمة عضو مع مهمة بقية الأعضاء أو تعمل ما يسيء إلى الجسد بل تتلاقى كلها في العمل له. فإن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقى مع نفوره من الذاتية ويجمع هذا وذلك في نهيه عن تقديس الأشخاص أو توثين الأشياء أو اتباع الأبناء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتثنيده بالقبور وأمره بالتفكير ونهيه عن التقليد، وبهذا يكون الإسلام بمسئليته وموضوعيته في واد والسلفية بماضويتها وذاتيتها في واد آخر .

وقد جعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالماضوية كأحد رموزها ومقدساتها، فإنها في الحقيقة كانت تؤمن بفكرة تناقض الإسلام ! وأن هذا من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكان يجب أن تقتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات .

والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء في رفض الماضوية ومسئليتها وذاتيتها لأنهما معا يدعوان إلى المستقبلية والموضوعية .



وأي شيء أكثر حسما وقوة في التنديد بالتباع الأبناء والأجداد من هذه الآيات .

- «والذين إذا قيل لهم تعالى إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون». {البقرة ١٧٠}
- «قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون». {المائدة ١٠٤}
- «قالوا اجئت لتفتتنا عما وجدنا عليه آباءنا». {يونس ٧٨}
- «ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم». {يونس ٤٠}
- «لقد كنتم أنتم وآباءكم في ضلال مبين». {الأنبياء ٥٤}
- «إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون». {الزخرف ٢٢}
- «انتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا». {هود ٦٢}

وكل الآيات أو الأحاديث التي تشيد بأشخاص فإنما يكون هذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضيف القرآن على أحد من المخلوقين عصمة أو توثيقا وقد خص الله تعالى رسله بوحية وتوجيهه، ولهذا جاز للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهي صفة ليست لغيره، وعندما أمتدح الصحابة فإنه أمتدحهم لأنهم «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعوا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا» وختم الآية «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» وكل آيات المدح في القرآن تنصب على «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ولم يعد الله تعالى العرب بوراثة الأرض ولكن «الصالحين» ولم يعط للأنبياء من سلطة سوى التبليغ والبيان وحذرهم في عبارات جازمة تجاوز هذا .



وقال الرسول "مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره" يسل  
لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا ولم يروه، وأورد الإمام أحمد بن حنبل في  
مسنده عدداً من الأحاديث بهذا المعنى منها :

« عن أبي محيزيز قال قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة رضي الله  
عنه حديثاً حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حديثاً جيداً،  
تغدينا مع رسول ﷺ ومعنا أبو عبيده بن الجراح فقال يا رسول هل أحد  
خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم يكونون من بعدكم  
يؤمنون بي ولم يروني .

« وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وددت  
أنى لقيت إخواني فقال أصحاب النبي ﷺ نحن إخوانك. قال لستم  
أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني .

« وعن أبي إمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ طوبى لمن  
آمن بي ورأى مرة وطوبى لمن آمن بي ولم يرنى سبع مرات (١) .

وهذا يدل على أن الإخلاف قد يكونون أفضل من الأسلاف وأن  
الذين لم يشاهدوا النبي وآمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وآمنوا به .

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه "والذي نفس محمد بيده لو أن  
أحداً اتفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". فإن ذلك إنما كان لأن  
كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو - في النهاية - يصب  
في تيار المستقبلية والموضوعية .

---

(١) أنظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ الوالد رحمه الله ج ١ ص ١٠٥ -  
١٠٧ وقد أورد البخاري في خلق أفعال العباد رواية عن أبي جمعة بالمعنى نفسه .



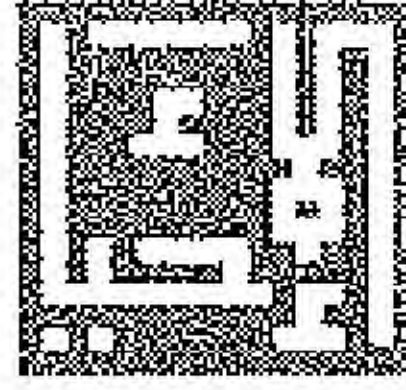
# فهرس

٣	مقدمة ..
٦	الفصل الأول : توحيد الله يستتبع التعددية فيما عداه ...
	الفصل الثاني : إشارات القرآن إلى التعددية .
١٢	قواعد التعددية في القرآن .
٢١	الفصل الثالث : تقرير تعددية الأديان ..
٢١	السبب التاريخي .
٢٥	السبب الموضوعي .
	الفصل الرابع : الحكمة .
٤٠	أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام
	يقرر الانفتاح والتعددية ...
٤٢	ماذا تعنيه الحكمة .
٤٥	لماذا نكر للقرآن الحكمة جنبا إلى جنب الكتاب .
٤٨	الفصل الخامس : التعددية في مجتمع إسلامي ..
٤٩	قضية الاختلاف والائتلاف .
٥٦	هداية الأنبياء .
٥٦	غواية الشياطين .
٦٦	الفصل السادس : آليات ضبط التعددية
٦٧	توفر درجة من الوعي السليم للإسلام .
٦٩	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٧٦	مقتضيات التعددية في المجتمع الإسلامي .
	ملحق عن دعوة الإحياء الإسلامي :
١	١. فكر وفقه دعوة الإحياء .
ك	٢. نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام .









## التعددية

### في مجتمع إسلامي

توهم كثير من الناس أن الأمة الإسلامية لما كانت أمة التوحيد، فإن هذا يفترض الأحادية في النظم، بمعنى أن يكون هناك رئيس واحد، ونظام واحد، وحزب واحد، وصحافة واحدة الخ ..

ويذهب هذا الكتاب عكس ذلك تماماً ويوضح أن توحيد الله تعالى يستتبع التعددية فيما عداه، فالتوحيد مقصود به الله وحده، ومد معني الواحدية علي غيره يمكن أن يكون نوعاً من الشرك، ويستشهد علي ذلك بعدد كبير من الآيات القرآنية التي تقرر التعددية وتتقبل الاجتهادات داخل الإطار الفسيح. بل إن انفتاح القرآن وصل إلي درجة الاعتراف بكل الأديان، وبكل الرسل وخص الله تعالى نفسه بالفصل فيما فيه يشتجرون ..

وتحت عنوان «الحكمة: أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية» يوجه الكتاب الانتباه إلي أن القرآن يدعو إلي «الكتاب والحكمة» ويفند ما ذهب إليه الشافعي من أن الحكمة هي السنة لأن القرآن يوردها في كثير من الآيات بما يناهض هذا المعني فضلاً عن أن السنة نفسها تدعو إلي الحكمة وتعتبرها ضالة المؤمن، وأن تقرير القرآن للحكمة أصلاً من أصول الإسلام يوجب استلزام النافع والمفيد من كل الثقافات والحضارات كائنة ما كانت وأن المسلم يكون أحق بها.

وفي فصل خاص يعرض الكتاب تصوره عن «التعددية في مجتمع إسلامي» فيشير إلي مبدأ رئيسي في الإسلام هو قبول الاختلاف وأنه لا يثير عداوة أو حساسية لأنه مما لا مناص عنه، ولأن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيه يوم القيامة وأن الاختلاف غير الخلاف، فالاختلاف يوجب التعددية ولكن الخلاف يؤدي إلي الواحدية ثم ينتقل إلي العاملين الرئيسيين في المجتمع الإسلامي إلا وهما هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

وفي الفصل الأخير ضوابط التعددية يتحدث الكتاب عن أنه وإن كانت من ناحية المبدأ ليست في حاجة لآليات تضبطها، لأنها -كالحرية- تضبط نفسها، إلا أن التجربة تثبت ضرورة وجود هذه الآليات التي تضع «قوا» وتكفل لها الاستمرار وتحول دون الانحراف. ويعرض الكتاب في هذا ضرورة توفر حد أدنى من الفهم الإسلامي الرشيد الذي يرفض التعصب كما يعرض «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو يعالج هذا المبدأ معالجة تفصيلية ويقارن ما بين الآيات المتعددة في القرآن وبين حديث منكم منكر الخ .. المشهور ويوجب ضبط الحديث بالقرآن بحيث ينحصر باليد علي الحالات العاجلة التي تؤدي السلبية فيها إلي وقوع جريمة المفهوم التقليدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويورد رأياً للإمام حسن البنا أيداه عندما حطمت مجموعة من «مصر الفتاة» بعض الحائ

2

Bibliotheca Alexandrina



0469324



دار الفكر الإسلامي

الكتاب



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)